5

قطعتا ثلج في تموز

أحمد حجازي

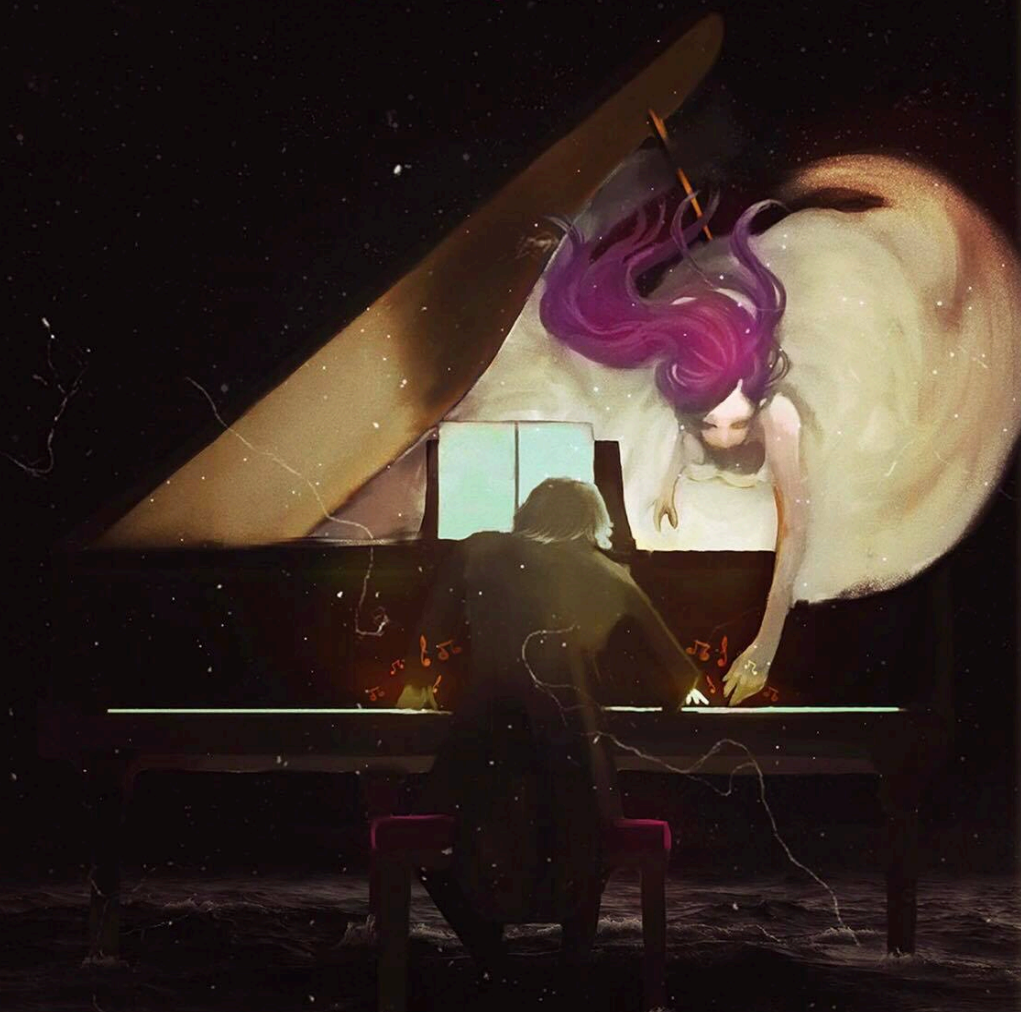

قطعتا ثلج في تموز ...

رواية

أحمد حجازي

قطعتا ثلج في تموز

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in . writing of the publisher

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال, دون إذن خطي مسبق من الناشر .

دار النمير

للطباعة والنشر والتوزيع

الحلبوني - شارع مسلم البا رودي

دمشق – سوريا

هاتف : ٠١١٢٢٢٦٢٠٧

e-mail : dar.alnameer@gmail.com

إهداء

إلى أمي أولًا، مصدر ثقتي بنفسي ومصدر دعمي، ولروح أبي.
وإلى من عرف معنى الوطن في زمن كثُر فيه عشاق وطن مزيفون.
وإلى أصدقائي وعائلتي ومنتظري عملي الأول بشغف؛ فلولاهم لم توضع نقطة نهاية روايتي.
ولن أنسى توأم روحي -إسلام بسيوني-
وإلى من خُلقتْ من ضلعي..

أحمد حجازي

وقفة شكر

إلى نفسي أولًا التي تحمَّلت مني تقلباتي ومزاجيتي، فهي تستحق الشكر

وقفة شكرٍ

لسماء دمشق وياسمينها..

للحبر الذي اختلط بدمعي مرارًا وأبى التخلي عني واستمر يخطُّ سطور هذه الرواية

وقفة شكرٍ

لمن وقف في وجهي وصرخ عاليًا: "لن تنجح." أنت تحديدًا جعلتني أستمر..

ولركام الوطن.

لا تنسَ..

أن لسوريا حدودًا وتسمى "وطنًا" وللوطن حقوق.

لا تنسَ..

أن ياسمين سوريا لن يذبل، وبقايا أبناء الوطن لن ينسوا وإن نُسيوا!

لا تنسوا أن دموعي سقطت عنوة!

إننا نقضي نصف عمرنا ونحن ننتظر لقاء من سنحبُّهم، والنصف الآخر في وداع الذين أحببناهم.

فيكتور هوغو

الذاكرة

دمشق – أيار 2015

في صباح دمشقي، كان يجلس على حافة القبر، يسدل أفكاره بعيدًا، ربما لخمس عشرة سنة، ولو استطاع لرجع أكثر، يتذكَّر ملامحه الطفولة،كيف عاش مدللًا عند والده يرفض أن يقاسم دلاله أحد، وها هو نصف البذرة الثاني يقاسمه قبر أبيه، لا يعلم هل هو فعلًا نصف! أم أنه كيان كامل، هل الذي في القبر هو! إن كان هو فمن الذي يحيا بجانب القبر!

تذكَّر كلام الفتاة في المدرسة؛ تلك -التي ظن أنها عشيقته عندما كان في العاشرة- كانت تقول له:
- أشك بأنك سوري؛ فجمالك أوروبي.

كان شعره الأشقر الناعم الذي ينسدل على كتفه وكأنه شلال متموج بخصيلاتٍ بنية، وعيناه الزرقاء الداكنتان وكأنهما مُحيط بلونه وأسراره، وبشرته الفاتحة التي اسمَّرت من أشعة الشمس في الكِبَر،

نظر إلى القبر والشاهدة التي تحمل اسمين بدلًا من اسم واحد؛ كان الاسم الأول اسم أبيه، ولكن الاسم الثاني الذي يحمل اسم أبيه، من هو! من الذي يتمتع بدفء أبيه الآن! هل يجب أن أحسده أم هو أنا!

كان كل شيء بحياته روتينيًّا، ليس غريبًا قبل 2009 ولكن السنوات الأخيرة غيرت كل شيء، وإلى الآن لا يستوعب عقله ماذا حدث... هل انقسمت! هل أنا اثنان حقًّا! من هو ومن أنا ومن تلك!

جاء صوت انفجار، نظر حوله ونهض....

****

موسكو - أيلول 1986

في ليالي الشتاء الباردة، ولا سيما في روسيا كان ذاك الدمشقي قد وصل للتوِّ.

شوارع باردة شاحبة وأشجار تختلف عن أشجار دمشق كانت تفتقر للياسمين ولرائحة التنور في الصباح، كانت روسيا مختلفة تمامًا عن سوريا، شعر بالرهبة تسري في جسده وكأنها كهرباء صامتة

مشحونة بألم وأمل، بدأ البرد يسري في أطرافه بصمت على عكس الضجيج الذي أُصدر داخله...

"كيف لي أن أعيش هنا أربع سنوات!" هكذا حدَّث نفسه "لغتهم مختلفة وحياتهم ليست كحياتنا، كل شيء بارد كبرودة طقسهم، ألهمني الصبر يا الله."

تذكَّر أصدقاءه الأربعة المقربين: خليل ومحمد وأحمد ورامي، "ليتهم جاءوا معي"، قالها وأتبعها بتنهيدة طويلة شكلت أمام وجهه دخانًا من شدة البرد، تذكَّر عندما كانوا في المرحلة الابتدائية معًا، عندما يحل الشتاء على دمشق كانوا يتنفسون ليتكاثف الهواء ويضحكون معًا وكأنهم يدخنون، كان خليل يمسك قلمه الرصاص ويضعه بين شفتيه ويأخذ نفسًا منه وينفخ في الهواء وكأن القلم سيجارة، ابتسم وكرر الحركة مرة ثانية.

ذكريات الطفولة لا تُنسى مهما كبُر الإنسان، حتى الزهايمر يعجز عن محوها ويصبح مريض الزهايمر سجين طفولته، أجمل شيء في الحياة هو أن يبقى أصدقاء الطفولة معًا حتى الشيخوخة، وهذا ما كان

يُسعده؛ فهم الخمسة بقوا من الابتدائي حتى الثانوي معًا، فرَّقتهم الجامعة ولكن لم تفرِّق قلوبهم ومحبة بعضهم لبعض.

خليل المدخن الماهر في الطفولة دخل كلية الطب البشري في جامعة دمشق، ورامي دخل كلية الاقتصاد، وأحمد دخل الحقوق كما كان يطمح في صغره، ومحمد بدأ حلمه في الهندسة المدنية، أما يزن لولعه في الإخراج التلفزيوني ولفرط تدليل والده له ومستواهم المادي الرفيع فأرسله إلى روسيا لدراسة الإخراج.

كان لكل منهم أسلوبه وصفاته الخاصة، ولربما الشيء الوحيد الذي كان يجمع بينهم هو الاختلاف.

كان يزن من مواليد برج الأسد، ذا شخصية نارية، متَّزنًا داخليًّا، سريع الغضب ولكنه يهدأ بسرعة، ولكن ما كان يميِّزه ولربما كانت صفة ذات حدين، أنه كان عنيدًا لدرجة تجعل مَن حوله يخشاه.

كبُر بأسرة صغيرة ثَرية في القرن العشرين في حي راقٍ من أحياء دمشق، كان وحيد أبويه ومدلَّلهم، تقاسيم وجهه شرقية بحتة، سماره الذي يجمِّله وعيناه البنيتان الواسعتان وشعره الأسود، لم يكن شعره ناعمًا ولم يكن خشنًا، كان في ثنياته طيَّات وكأنها نهر متعرِّج، كان

طويل القامة، جسمه رياضي، كان سباحًا ماهرًا، ويهوى عزف البيانو، وهذا شيء يضيف لشخصيته الغموض، من يراه من بعيد دون التعمق فيه يصفه بالمتناقض، باختصار كان ناريًّا عاشقًا للمغامرات، على عكس خليل صديقه المقرَّب الذي كان يخافها ويحب ما هو تقليدي، نادرًا ما يراه أحد يرتدي لونًا غير الأسود، كان الأسود يزيد أناقة يزن رونقًا، في بداية أمره كان متحمسًا لفكرة سفره ودراسته في روسيا، ولكن السنة الأولى مرَّت بطيئة ومملة عليه وكاد أن يتخلى عن الجامعة ويعود لدمشق أكثر من مرة، كان من الصعب عليه أن ينصهر بسهولة ولا سيما أن معدنه صلب.

اقترب الصيف وسيعود لدمشق بعد أسبوع، كانت فرحته لا توصف ولكنه لا يعبر عنها إلا بابتسامة باردة، هذا كان أحد طباعه الغامضة، أراد أن يشتري هدايا لوالديه وأصدقائه تعبر عنهم؛ لأن الهدية ليست بثمنها أو بحجمها ولكن بقدر تعمُّق الشخص بشخصية صاحب الهدية، هذا ما كان يقوله يزن دومًا عن الهدايا، كان لبقًا بفن الهدايا ويختارها بتأنٍ وتعمُّق،بدأ بوالدته التي لو استطاع أن يأخذ لها وردة حمراء من حديقة موسكو لكانت أروع هدية لها لحبها للورد الأحمر، كانت شديدة الرومانسية.

توقَّف أمام محل صغير يبيع أشكالًا خشبية يدوية، لفتت نظره وردة جورية خشبية اشتراها لوالدته وكان على يقين بأنها ستعجبها أكثر من عقد ألماس، واشترى قلمًا مرصَّعًا بالذهب ليضيفه والده لمجموعة أقلامه ذات القيمة المادية والمعنوية العالية، أما خليل فاشترى له كرة قدم ماركة Adidas لتعلُّق خليل بلعبة كرة القدم، واشترى عطرًا يقال إنه يجذب الفتيات لصديقه محمد، ولو استطاع أن يأخذ له فتاة بدل العطر لكانت فرحته أكبر، واشترى ساعة أنيقة لصديقه الأنيق دومًا أحمد؛ أحمد منذ صغره يجمع مصروفه اليومي ليشتري ملابس جديدة أو ساعة أو قبعة؛ كان مهووسًا بالموضة، وفي نهاية المطاف اشترى سلسلة تجمع بين صليب وهلال لصديقه رامي، رامي مسيحي الديانة ورغم اختلاف ديانته كان جزءًا لا يتجزأ منهم، كان يقول له يزن دومًا: "الرب واحد، كل إنسان يعبده بطريقته وبإخلاصه، وكلنا عباد له، الديانات مجرد طرق لنتوصل إلى الرب، لا تغير قناعاتك لأي سبب، اعبده واعشقه بأسلوبك وبديانتك؛ فالصليب والهلال رموز وليسوا إلهًا"، كان سعيدًا بما اختار لهم ومتشوِّقًا لرؤيتهم ولرؤية دمشق.

دمشق - تموز 1986

ها هي الشمس تستعد للغروب بعدما أضافت للسماء لونًا أرجوانيًّا بأشعتها الدافئة وطائر النورس يحلِّق عاليًا احتفالًا بالصيف ويتطاير بجناحيه برحاب سماء دمشق، بالرغم من أنه يستطيع السفر لأي مكان في هذا العالم دون الحاجة لتأشيرة دخول أو حتى جواز سفر ولكنه رغم ذلك لم يختَر سوى دمشق وطنًا، كان لونه الأبيض الممزوج بأرجوانية السماء سحرًا لمن يتأمله، الطبيعة هدية الخالق لنا؛ فهي سحر للقلوب، الفقير والغني والكبير والصغير لهم الحق بالتمتع بها دون مبالغة مفروضة ولا موافقات من أي جهة ولكن القليل من يشعر بهذه النعمة التي تحيط بنا.

الطائرة تصطفُّ في مطار دمشق الدولي ويتبعها: "لقد وصلنا بمشيئة الله إلى مطار دمشق الدولي، الساعة بتوقيت سوريا الآن السادسة وخمسون دقيقة، وتبلغ درجة الحرارة ثلاثون درجة مئوية، الحمد الله على سلامتكم." ابتسم يزن وأراد أن يسابق الزمن لكي يصل إلى بهو المطار، كان والده ووالدته قد وصلا لتوِّهما بسيارتهما المرسيدس السوداء إلى المطار وكلهما لهفة وشوق لولدهما الوحيد الذي غاب عنهما عشرة أشهر لأول مرة بحياته، ولكن شوق يزن أكبر؛ فهو لم

يشتَاق لشيءٍ واحد فقط؛ اشتاق لأشخاص، لوطن، لأشياء عِدَّة، اشتاق لعصافير تزقزق باللهجة الشامية، لياسمينة تغازله في كل صباح، لضحكاتٍ ممزوجة بمشاهد جنونية مع أصدقائه. أسرع إلى صالة المطار مع حقيبته قبَّل يدَي والديه وذهبوا لمنزلهم، وما إن جاء الليل حتى ارتدى ملابسه السوداء وتعطر بعطره المفضل Boss وأخذ سيارة والده ليذهب لإخوته إن صحَّ التعبير.

في هذا العام (بعد مرور السنة الأولى من الجامعة) دخلت شخصياتهم بطور النضوج؛ فكل واحدٍ منهم بدأ يأخذ صفات مهنته المستقبلية، ولكن ما إن يجتمعوا معًا إلا وكانت روح الطفولة سادتهم مرَّت الإجازة سريعًا وعاد كل منهم إلى جامعته، وعاد يزن إلى روسيا.

****

موسكو

بدأ يزن يعتاد على الحياة بروسيا أكثر وكوَّن صداقات، وبين تلك الصداقات "ألينا"؛ تلك الفتاة الروسية الشقراء ذات الملامح الباردة الناعمة، لها شفتان صغيرتان ورديتان، وعينان زرقاوان وبشرة بيضاء

كبياض الثلج، كانت أنثى بما تعنيه الكلمة من معنى، شعرها الحريري ورموش عينيها الكثيفة.

ما إن رآها يزن حتى أُغرم بها ولم يكن من الصعب أن يوقعها بحبه، عازف البيانو وعازف القلوب، ولكن لم تكن وسامته الشرقية وغموضه فقط ما جذب ألينا إليه؛ ولكن ثراءه أيضًا كان له دور كبير دون أن يعلم.

كانت ألينا تلك الفتاة التي تصغره بسنة ذات شخصية مميزة ومادية، تعشق المال كما تعشق الحياة المرفهة.. المنزل الفخم والسيارة الحديثة والملابس الراقية من باريس والمجوهرات السويسرية، هذا ما كانت تراه بيزن إلى جانب صفاته الشخصية الأخرى، كانت تعشق التميُّز، ويا له من شيء جميل أن ترتبط بشاب عربي! وسرعان ما تحوَّل الارتباط والحب لزواج، كان الأمر جنونيًّا بالنسبة ليزن؛ ولا سيما لأنه أخذ القرار دون أن يخبر والديه، تزوَّجا بالعاشر من أيار في 1988 كان على وشك إنهاء العام الثالث؛ أي تبقى على تخرجه وعودته لدمشق عام واحد، اتصل بوالده ليخبره بأنه لن يستطع أن يأتي هذا الصيف؛ فهناك دورة صيفية مهمة هذا العام

ستفيده جدًّا، وقال في نهاية المكالمة: "لم يتبقَّ سوى عامٍ واحد وسأعود لكم."

ترك الهاتف ونظر لزوجته، وسرعان ما سألته: "هل سيتقبَّلني والداك!"، أجاب وكأنه يطرد الوسواس من داخله: "بالتأكيد؛ فما يهمهم هو سعادتي."

كانت ألينا مسيحية كاثوليكية واعتنقت الإسلام بعد زواجها من يزن، وبالرغم من كونه إسلامًا سطحيًّا غير متعمق، ولكن حمد ربه؛ فالآن يستطيع تقديمها لوالديه على أنها مسلمة، هكذا كان يحاول إقناع نفسه خلال الـ 420 يومًا التي فصلت تاريخ زواجه عن تاريخ عودتهما هو وألينا إلى دمشق.

دمشق - تموز 1989

في هذا اليوم لم يخبر والديه بتاريخ وصوله، وكأنه لم يتهيأ للاصطدام في صالة المطار التي كانت دائمًا تشهد فرحتهم أثناء عودته، وصلا لدمشق عند الثانية ظهرًا؛ هو عند طابور السوريين وهي عند طابور الأجانب، خُتم جوازا سفرهما وأخذا حقائبهما، ووصلا لباب المطار، وأوقف تكسي أصفر أعطاه العنوان، كانت لحظات تمر بطيئة

شاحبة تفصل بين "اللحظة الراهنة" ومستقبل مجهول، وقف التاكسي- عند باب فيلا فاخرة، ذُهلت ألينا، اقترب يزن من بابها الخارجي وفتحه ودخل، فتح الباب الثاني وتوسَّط صالة المنزل، جاءت والدته من المطبخ بسرعة: "يزن!" صرخت: "لمَ لم تخبرنا بمجيئك!."

وقف صامتًا لا يظهر على وجهه أي ملامح، وجهٌ مفرَّغ من التعابير اختفت ملامحه فجأة، فُتح باب مكتب والده ليطل بفرحة بعد سماع صوت زوجته واسم ابنه، اقترب أكثر، لم ينحنِ يزن ليقبِّل يده، لم يبتسم تلك الابتسامة التي كان يعبِّر بها عن فرحه، وكأنما اختفت شفتاه، لم يعد يشعر بهما، كان نظره مركَّزًا على نقطة معينة بعيدة عن والديه، وللحظات لم يعد يشعر بعينيه، وكأنهما اختفتا أيًا. فُتح الباب مرة ثانية، لتطل تلك الشقراء وقطعة قماش تغطي القليل من شعرها خافضة رأسها للأسفل: "من هذه؟" سألت والدته على الفور: "هل أتت معك؟"، المزيد من الصمت والمزيد من التَّجمُّد، كان كقطعة جليد في تموز تزداد تصلبًا، قطع صمته صوت والده الخشن "يزن! من هذه الفتاة؟" "إنها زوجتي." رد ونظره ثابت، لحظة صمت وكأنها لحظة انتقال من الوعي إلى اللاوعي. أول ما سمعه بعد صدى صوته صوت بكاء والدته بينما بقي والده واقفًا

كالشجرة الصلبة التي وإن ماتت تبقى واقفة. اقتربت ألينا أكثر وكأنها تحاول فهم ما يدور بينهم، كانت تسمع كلمات غريبة غير مفهومة وصمتًا، حتى الصمت سمعته، كان له صوت طنين في أذنها، صوت صفير منخفض وكأنه يأتي من بعيد، "خذ هذه الفتاة وأخرجا من منزلي" قالها الصوت الخشن نفسه. جاءت هذه الجملة كالصاعقة على يزن، توقَّع ردود فعلٍ كثيرة، ولكن لم يتوقع من والده هذه الجملة، أو بالأصح لم يتوقع هذه القسوة التي أحاطت بالجملة، كان مدلَّل والده منذ صغره، ولم يُرفض له طلب بحياته قط.

ها هو الآن يطرده من منزله.. التفت يزن إلى ألينا واقترب منها، أمسك بيدها وخرج من الباب. سمع صوت والدته يناديه، سمع بكاءها ولكن لم يسمع كلمة واحدة من والده.

****

في التاكسي كان الصمت مخيمًا على يزن منذ خروجه من المنزل، "ماذا حدث؟" اقتحمت صمته بلغتها الروسية "ما قال والدك؟ وإلى أين سنذهب؟"

نظر إليها بطرف عينه وأخذ يفكر وكأنه لم يعد يفهم لغتها فجأة، رددت "أجبني يزن"، تمتم وكأنه يحدث نفسه قليلًا بكلمات متقاطعة وأكمل بلغتها: "سنذهب عند صديقي خليل إلى أن يهدأ والدي قليلًا"، وعاد لصمته ولضجيجٍ ما تفجر داخله، أصوات متداخلة وصراخ وبكاء وصوت ضميره يتحدث بين الضجيج ليرد عليه صوت غروره ليبدآ حوارًا يدور دومًا في داخلنا.

- ربما كنت مخطئًا.

~ولكن هذه حياتي.

- ولكن هما والداي.

~ يجب أن يحترما قراراتي.

والكثير من الحوارات داخل رأسه وكأنها مد وجزر، وفي نهايتهما يُلقى على شاطئٍ صغيرٍ خالٍ من الرمال، هل حقًّا يوجد شاطئ خالٍ من الرمال! شواطئ النفس بعد أمواج الذاكرة تصبح قاحلة عطشة مجرَّدة من الهواء حتى.

بقيا عند خليل أسبوعًا إلى أن وجد يزن شقة صغيرة مكونة من غرفة وحمام ومطبخ ليسكنا بها إلى أن يجد عملًا، كان من الصعب إيجاد فرصة عمل لمجالٍ كالإخراج في التسعينيات، ورغم ذلك لم ييأس. بعد مرور ثلاثة أشهر وجدا نفسيهما في مرحلة ما قبل الصفر وكأنهما توقفا بينما العالم يتحرك باستمرار لا ينتظر أحدًا، والده لم يلن، وهو لم يكلف نفسه بالمحاولة بعد طرده.

ألينا الحياة التي طمعت بها وتخيلتها لم تجدها، وكأنها كانت ترى الجنة بعد دخان النار، وما إن اجتازت الدخان وبدأت عيناها تتسع من جديد لتجد نفسها في صحراء، لا جنة ولا نار، في المجهول ارتمت، ولكن ما كان يزيد قلقها شكُّها بالحمل؛ فأعراض الحمل الأولى بدأت تظهر عليها، لم تخبر يزن حتى تتأكد، ولم تكن متأكدة هل ستحتفظ بالجنين أم لا! "ألينا مبروك" قالت تلك الممرضة في المستوصف القريب من منزلهم مع ابتسامة واسعة، كانت تلك الكلمة قد سمعتها مسبقًا من أصدقاء يزن عندما رأوها للمرة الأولى وقد ترجمها لها يزن، هذا يعني أنها حامل! شعرت بدوار، لم يكن دوار الحمل، بل دوار الخبر،الأفكار تداخلت برأسها، ولكن أملها بأن حالهم لن يدوم جعلها تخبر يزن، الذي فرح عند سماعه الخبر وكأنه وُلد من جديد، اقترب

من بطنها وهمس: "طفلي الصغير! أنني بانتظارك" نظر بعيون ألينا الزرقاء "ولد أم بنت"، ضحكت ألينا وقالت له: "ما زال الأمر مبكرًا لمعرفة جنس الجنين"، تنهدت وأكملت "ألن تتصل بوالديك لتخبرهما بحملي؟"

تيبست نظراته وكأن صوت والده وهو يقول: خذ هذه الفتاة وأخرجا من منزلي، ما زال عالقًا في أذنه، تتردد بصدى: "مستحيل؛ فأنا قررت الاعتماد على نفسي، ومن لم يتقبل زوجتي لن يتقبل طفلي"، هذه الكلمات بددت ما تبقى من دخان أمل ألينا. انقضى أول شهرين من حملها ووضعهما يزداد سوءًا، ويزن لم يلن رأسه ووالده لم يلن قلبه.

****

دمشق - كانون الثاني 1990

في اليوم الثالث من العام الجديد عاد يزن من عمله الذي كان مختلفًا تمامًا عن دراسته، فتح باب الشقة الصغيرة ودخل ببطء: "ألينا، ألينا" ردَّدها كثيرًا وهو يبحث عنها في الغرفة والمطبخ، وجد ورقة على طاولة المطبخ فتحها ليقرأ ما بداخلها.

عزيزي يزن....

في الوقت الذي ستقرأ هذه الرسالة، سأكون في الطائرة التي ستعيدني إلى موسكو، لا أعلم أي كلمات يجب أن أكتبها إليك، ولكن الذي أعلمه جيدًا أني لم أستطع تحمُّل عناء هذه المعيشة أكثر؛ فالأشهر المقبلة سنصبح عائلة وسيكون ابننا بيننا، هل تظن أن هذه الغرفة ستكفينا؟! هل تظن راتبك الجديد سيكفي احتياجات مولودنا؟! أحبك ولكن لم تبقَ لي حياة في دمشق، سأعتني بطفلنا جيدًا، سأشتاق إليك، ولكن هذا أفضل، إن لم يكن لكلينا فلطفلنا.

مع محبتي

ألينا

ترك الرسالة جانبًا يحاول جمع أفكاره وترتيب الأحداث بوعي أكبر، زواجهما الجنوني، ورفض والده لها، وطرده من منزله، وحمل ألينا، وأخيراً تلك الرسالة! "لا يمكن للمصائب أن تأتي متفرقة، دومًا يد واحدة" قالها يزن وأتبعها بتنهيدة طويلة وكأنها اقتلعت شيئًا ما بداخله وأخرجته مع ثاني أكسيد الكربون.

لم يشعر بنفسه إلا واقفًا أمام الفيلا الواسعة التي كبُر فيها والتي طُرد منها، ضغط زر الجرس وكأنه ليس منزله، مفاتيح الأبواب كانت

بجيبه ولكنه احترم قُدسية المنزل، فتحت له والدته: "حبيبي يزن!" تسابقت دموعها على خدَّيها "اشتقت إليك" قالتها بصوت تقطعه الدموع، قبَّل يدها واحتضنها بحرارة، "أين أبي؟" خرجت من فمه وهو يمسح دمعته التي سقطت عنوة، "إنه في مكتبه، لم يعد يخرج منه كثيراً بعد ذهابك"، اقترب من باب المكتب ودقَّه بهدوء بعدما كان يدفعه ويدخل، "ادخل" جاءه الصوت الخشن الذي اشتاق إليه.

دخل واقترب بشموخه المعتاد يخفي حزنه وانكساراته، وصل أمام والده وانحنى له قبل يده وبدأ يردد كلمات الاعتذار، "أين هي الآن؟" سأله بذات النبرة التي طرده بها مسبقًا، "سافرت إلى روسيا، انفصلنا"، ما إن قال كلمته الأخيرة حتى حضنه والده وعاد يرق صوته، "ولكن أبي.." تنهد قليلًا وأكمل: "هناك شيء يجب أن أخبرك به.." نظر إليه والده بحدَّة يحثُّه على الكلام، "ألينا حامل" صمت والده بعد هذه الجملة وهو يفكر بينما صداها بدأ يأتي من أرجاء البيت "حفيدي يجب أن يعيش معنا" وقبل أن يتحدث يزن أكمل كلامه: "بعد أن يولد حفيدي ستذهب وتأتي به ليعيش معنا." هزَّ يزن رأسه موافقًا وهو يفكر بـ (غدٍ).

رغم أن حياته عادت كما كانت إلا أن هناك أشياء لم تذهب بذهاب ألينا وعودته للمنزل؛ كحنينه إليها وشوقه الذي ما إن يطفئه حتى يعود للاشتعال من جديد وكأنه من المستحيل أن يصبح رمادًا "هل تشتاق إليَّ كما أشتاق إليها!" كان يسأل نفسه دومًا ويرد على نفسه: "هي التي ذهبت ولن أفكر بها"، المد والجزر لم يتخلص منهما، بقي حبيسهما سنين طوالًا.

****

موسكو - تموز 1990

في السابع عشر من تموز، ألينا في منزلها عندما بدأت تشعر بألم أسفل بطنها سرعان ما تحوَّل إلى صرخات متقطعة، أمسكت بهاتفها مسرعة واتصلت بكارولين صديقتها التي أتت بسرعة ونقلتها إلى المستشفى، صراخها في ممرات المستشفى، دعاء كارولين لها من العذراء بأن تحميها وتساعدها وتخفف عنها آلامها: "أمنا الحنون، أتوسل إليك أن تحمي ألينا." قالتها ودموعها انهمرت علي وجنتيها، وسمعت صوت بكاء طفل، اقتربت من الباب الذي فُتح، "مبروك إنهما توأمان" قالها الدكتور الأشقر وابتسم، وأكمل: "وأمهما على ما يرام"، وبعد قليل أخرجت الممرضة الطفلين الصغيرين إلى الحاضنة،

بدأت تتأملهما من وراء الزجاج، كانا صغيرين جدًّا ولكنهما جميلان كالملائكة، نُقلت ألينا لغرفة خاصة، دخلت كارولين: "الحمد الله على سلامتك." مع ابتسامة خفيفة: "إنهما توأمان"، ردت ألينا: "يجب أن نخرج من المستشفى بسرعة." نظرت لها كارولين باستغراب، قرأت دهشة صديقتها وأكملت: "قبل أن يأتي يزن."

أتمَّت كارولين الإجراءات اللازمة، وأسمَت ألينا الطفلين (جود وجاد) وذهبا للمنزل، قالت ألينا لكارولين ما يدور في بالها، كان حوارهما تارة يشتد وتارة يهدأ ولكن في نهايته قالت ألينا: "هذا أفضل."

جاء يزن إلى موسكو، أخبرته ألينا إنها أنجبت ولدًا، سعادته بلغت أشدَّها، أذَّن لجود بأُذنه وأخذه معه عائدًا لدمشق، بينما بقي جاد في موسكو مع ألينا، ولكن دون علم يزن به، كان جنونًا من ألينا كعادتها، ولكن أمومتها منعتها من التخلي عن ولديها، وربما هكذا أفضل، وبالرغم من بقاء جاد معها ولكنها كانت تشعر بنقص، ظنَّت الأمر سهلًا بتخليها عن أحد طفليها، كان جود وجاد كالبذرة التي قُسمت على اثنين متشابهين بكل شيء، كان لهما شكل ألينا أمهما؛ العيون الزرقاء، الشعر الأشقر الموج بالبني، والبشرة البيضاء، والفم الصغير،

كانا قطعتي ثلج، عندما وصل يزن وجود لدمشق كانت فرحة جديدة أُضيفت لمنزلهم، تلك القطعة الثلجية التي تساقطت من السماء في تموز، هكذا كان يبدو جود ليزن ولوالديه ولأصدقائه الأربعة.

قطعتا ثلج في تموز

ألينا...

مرَّ كل شيء بسرعة، وتصرفت دون أخذ وقت كافٍ للتفكير، أتذكَّر يومًا ما منذ أشهر بعدما عرف يزن بحملي كنا في تلك الشقة الصغيرة التي أكرهها، يزن في طرف الغرفة أمامه الأورج الصغير يعزف سيمفونية ضوء القمر لبيتهوفن؛ تلك المقطوعة التي يعشقها، تفاصيله في ذلك اليوم لم تذهب عن بالي؛ عيناه التي تخفي حزنًا كبيراً وتكابر، وشعره الأسود الداكن كسواد الليل، ويداه التي تعزف بدقة متناهية، بقيت أتأمَّله وأتأمَّل عزفه وقلبي يتراقص مع تلك الموسيقى التي تُصدرها آلته الصغيرة بعدما كان يعزف على بيانو كبير في غرفته الخاصة بفيلتهم، لم يشعرني ولو لمرة بالذنب بعدما تغيرت حياته 180 درجة، كان يُشعرني بأنه معتاد على هذه الحياة، وأنه رجل ويجب أن يعتمد على نفسه، نعم لقد كان رجلًا حقيقيًّا، بعد انتهائه من العزف جاء وجلس بجانبي وضع يده على بطني وحدَّث طفلنا الصغير ونظر

إلي وقال: "ماذا سنسميه؟" وأكمل دون انتظار جواب: "إذا كان صبيًّا فأنا سأختار الاسم، وإذا كانت فتاة فأنتِ اختاريه، أرأيتِ! أنا ديمقراطي"، سألته حينها" إذا كان المولود صبيًّا ماذا ستسميه"؟ قال بعد تفكير طويل: "اممم، جود أو جاد؛ إنني أحب هذين الاسمين. لا أعلم لماذا سميتهما بنفس الاسمين الذين أخبرني بهما يزن، ولكن فعلت دون تفكير، كما تركت دمشق دون تفكير، وأعطيته جود وأخفيت عنه حقيقة وجود جاد.

لا أعلم ما هو الشعور الذي ينتابني الآن! هل أنا حقًّا نادمة؟ هل أحببته لذاته؟

بعدما بقينا أنا وجاد وحدنا بدأت أشعر بأنني أشتاق ليزن، ولجود أيضًا، ولتلك الغرفة الصغيرة، ولأورجه، يزن عندما أتى أذَّن بأذن جود، كم تمنيته أن يفعل ذات الشيء لجاد أيضًا.

****

يزن....

عندما ذهبت لموسكو ورأيت ألينا كم تمنيت أن آخذها بحضني وأخبرها بحجم الشوق الذي أكنُّه لها ولكنني لم أفعل، يصفونني دومًا بالعنيد؛ ولذلك حافظت على تلك المسافة التي خلقتها ألينا عندما ذهبت منذ شهور، ولكن قطعة من ألينا أصبحت معي الآن، جود أجمل ما حدث بحياتي، تُهت في تأمل تفاصيله شهورًا، ولو قضيت عمرًا أنظر لهذه القطعة من الثلج التي أثلجت حياتي لن أملَّ. كان جود يشبه ألينا جدًّا، لا أدري لمَ هذا الأمر، لم يقلقني؛ ربما لأنني أحتاج أن أراها أمامي بوجه ابني.. ابننا جود.

منذ يومين كنت نائمًا وحلمت بشيء غريب؛ حلمت بجود يبكي، اقتربت منه فسكت، ولكن صوت البكاء بقي مستمرًّا، حملته بين يديَّ والصوت لم يتوقف، شهقة فبكاء فشهقة.. استيقظت مرعوبًا ونظرت لجود وهو نائم، حاولت النوم بعدها ولكن لم أستطع؛ صوت البكاء بقي سجين أُذنيَّ من حينها؛ يهدأ يومًا واثنين حتى أظن بأنه ذهب ولكن سرعان ما يعود أقوى من قبل؛ ذات الشهقة والبكاء.

اقترح والدي عليَّ الزواج ولكن لم أتخيل نفسي يومًا زوجًا لغير ألينا، قال لي رامي: "جود بحاجة لأم لتعتني به." أكمل محمد: "لا

يجب أن يعرف جود بأن أمه قد تخلَّت عنه." اعترض خليل: "أتقصد أن يزن لن يخبر جود من أمه الحقيقية؟!" أكمل محمد: "إذا تزوج بفتاة جيدة واعتنت بجود وكانت أمًّا له، فلا داعي لأن يخبره الحقيقة كاملة.". طال الحديث، وأنا اكتفيت بالصمت والاستماع، كان قرارًا كهذا يحتاج إلى تفكير طويل، بالرغم من ضغط والدي وأصدقائي عليَّ كان يجب أن أحافظ على اتزاني الداخلي وعدم التسرع، مستقبل جود مرهون بكلمة مني، حقًّا لا أعلم ما يجب فعله، ولكن أظن بأنهم محقون.

مراسم زفاف دمشقية باهتة أشبه بمراسم عزاء، أنا العريس، أما العروس ففتاة اختارتها أمي بعدما اتفقت معها على كل شيء وعلى أهم شيء: (جود). الفستان الأبيض، بذلتي السوداء، وربطة عنقي السوداء، الأغاني، والصالة.. كل شيء تقليدي وكأنه عقد عمل جديد، لم أشعر للحظة بأنني أتزوج حتى بعدما أصبحنا وحدنا في الغرفة، بدَّلت ملابسي من بذلتي السوداء إلى بيجامتي السوداء ونمت، "تزوجت من أجل جود فقط أو ربما مبدئيًّا، فلا أعلم ما تخبئه الأيام لنا"، هذا ما أخبرت دانيا به وتقبَّلته بروحٍ رياضية، كانت دانيا فتاة جميلة؛ لم تكن شقراء وبيضاء، ولا أعلم كيف سأفسر لجود ذلك

عندما يكبر؛ كانت قمحيَّة البشرة، عيناها واسعتان وخضراوان، شعرها بني طويل، وأنفها حاد وكأنه مرسوم بدقة على لوحة، وجسدها متناسق.. كانت مثالً لجمال المرأة الشرقية، لها قلب طيب كجوهرة زمرد نادرة، متواضعة، صوتها لا يكاد يُسمع، خجولة، رومانسية جدًّا، هذا ما عرفته مع السنوات.

****

2000 م

جود....

بعد حصَّة البيانو التي أعشق ذهبت الآنسة ماري لتتركني على ذلك البيانو الضخم في غرفة الموسيقى المستقلة في فيلتنا، لم تكن الحصص هي فقط ما يجمعني بهذه الآلة الضخمة التي أذوب بتفاصيلها، كنت منذ سنتين أجلس على الكرسي الجلد الأسود وأبدأ التحدث بأصابعي مع مفاتيح البيانو البيضاء والسوداء، كان اللحن الذي يُصدر من عشوائية عزفي لا يمكن أن يصدر من طفل في الثامنة من عمره، ورغم ذلك اتفقت أمي مع الآنسة ماري على تزويدي بدروس العزف على البيانو.

كانت أمي تريدني الأفضل بكل شيء، ولكنني لم أكن أشبهها كثيراً لا بالشكل ولا حتى بالطباع؛ كنت نسخة مصغَّرة من أبي؛ أحمل نفس طباعه، وكنت سعيدًا بذلك. في التاسعة من عمري أي منذ سنة بدأت أحلامي تأخذ صور غريبة، ولم أعد أفهمها، ورغم ذلك لم أخبر أحدًا بها سوى عمي خليل. أول حلمٌ استغربته كان في شتاء 1999، كنت نائمًا بغرفتي، حلمت بأبي يجلس بصحراء بعيدة، كان يبدو صغيراً، اقتربت منه وكنت كلَّما اقترب أكثر أشعر بالعطش والحرارة، وصلت إليه رفعني بين يديه كما يفعل دومًا وأنزلني بسرعة وقال لي: "أنا متعب يا جود"، وفجأة توقف دون أن يتحرك، نظرت حولي، كل شيء أصبح جمادًا ثابتًا وكأن الزمن قد توقف فجأة، وكأنني أنا وأبي والصحراء داخل تلفاز وشخص ينظر ألينا، اقتربت من الشخص أكثر، حاولت الخروج من شاشة التلفاز لأراه، ولكن استيقظت، ومنذ ذاك الحلم، أصبح أي منام يراودني تكون له نفس النهاية. توقف كل شيء، وتوقف الزمن وشاشة التلفاز التي أنا بداخلها وذاك الشخص، في البداية كنت أستاء من تلك الأحلام، ولكن بعدما سألت عمي خليل قال لي: "لا تخبر أحدًا غيري"، سكت قليلًا وأكمل: "هذا شيء عادي ويمكن أن يحدث لكثير من الناس، لا تشغل بالك، مجرد أحلام."

أخذت بنصيحته؛ فقد كان قدوتي في الحياة، كنت أنظر إليه وكأنه أنا بعد 23 سنة، بصراحة أصدقاء أبي الأربعة كنت أحبهم بالرغم من بعدهم عن بعضهم، ولكن عندما أراهم فأشعر وكأنهم قلب واحد ينبض في خمسة أجساد.

كان أبي دومًا يحدثني عن طفولتهم ومراهقتهم، كانوا دومًا معًا، عكس الآن فكل واحد يقضي أغلب وقته في عمله أو مع أسرته عمي خليل في المستشفى طوال اليوم، كان جرَّاحًا معروفًا في دمشق، ولكنه بسبب دراسته الطويلة لم يتزوج إلى الآن، وعمي رامي كان موظفًا في البنك، وتزوج ولديه فتاة تصغرني بثلاث سنوات واسمها ليال، كانت جميلة جدًّا، وعمي أحمد إما في مكتبه أو بالمحكمة يترافع في قضية ما أو في بيته مع زوجته وأطفاله الثلاثة الصغار، وعمي محمد كان قد نجح في تكوين شركته الصغيرة أخيراً قبل سنة، وتزوج منذ ثلاث سنوات ولكن لم ينجبا إلى الآن. كنت أراهم من عائلتي وكأنهم أعمامي حقًّا.

****

جاد.....

لا أعلم من أنا؟ ولمَ أنا هنا؟ كل ما أعلمه حسب ما أخبرتني به أمي أنني سوري وأبي دمشقي، وأن لي أخًا توأمًا سألتقي به في يومٍ من الأيام، كنت عندما أسال أمي متى سيأتي هذا اليوم كانت تقول لي جملتها الشهيرة: "لكل حدثٍ وقتٌ معين، لن ينتهي الحدث قبل وقته ولن يستمر بعد وقته"، كانت جملتها لغزًا لي كنت، أفهم منها أنه ليس الآن، كانت تحاول أمي تعليمي اللغة العربية وأن أكون مسلمًا كأبي.

كانت تحكي لي عن الإسلام دومًا، وهي لا تعرفه جيدًا على عكس خالتي كارولين، كانت تحدِّثني عن المسيحية بقوَّة وبثقة، كنت أرى نفسي مشتتًا بين أمي وخالتي كارولين، أهدتني خالتي صليبًا عندما بلغت الثامنة وكنت في بداية الأمر أُخفيه عن أمي، ولكن عندما رأته قالت لي: "يقول أبوك دومًا، إن الصليب والهلال رموز وليسا آلهة."

ولكنني لم أجد ديانتي، لا من حديث أمي ولا من حديث خالتي، كنت أذهب إلى الكنيسة مع خالتي كارولين وأشعل شمعة وأرسم الصليب أمام وجهي كما كنت أراها تفعل، كنت أشعر بالراحة وأنا في الكنيسة وأشعر بالراحة أيضًا عندما يحدِّثني خالد أستاذ اللغة العربية الذي كنت أذهب إليه كل أحد عن الإسلام.

اشترت لي أمي أورجًا صغيراً في عيد ميلادي العاشر، أحببته كثيراً، كنت أعزف عليه وأشعر وكأنني بمكان آخر، مكان ليس كروسيا ولا أظن أنه كسوريا أيضًا.. أشعر وكأنني ملك نفسي، ببستان لي وحدي، لا أنتظر شيئًا من أحد، مقتنع، راضٍ، ولكن عندما أخبرتني أمي عن حب أبي لعزف البيانو أصبحت أبتعد عنه، أصبحت أخافه وكأنني إذا لامست مفاتيحه سيراني أبي.

خليل.....

الحيرة والقلق والشعور بالندم كاد يخنقني منذ سنوات، وازداد ذلك الشعور عندما أخبرني جود بأحلامه؛ حيث كنت متأكدًا بأن ألينا هي التي تشاهد أحلامه وكأنها مسلسل تلفزيوني، ربما وجود دانيا كان يخفف ذاك الشعور، إنها أمٌّ حقيقية لجود، تحبه وكأنه ولد من رحمها، للحقيقة جود كان محظوظًا؛ فلم تكن دانيا فقط من يشعر بأنه طفلها ولكن حتى أنا كنت أشعر بأنه طفلي الصغير الذي لن يكبر مهما كبُر عمره، غرقت بدراستي وعملي حتى نسيت الزواج ونسيت الأسرة، ولكن جود كان يحسسني بالأبوة، كان فطنًا وشديد الغموض وكأنه قطعة ملابس سوداء لدى يزن، كان يبدو أنه أكبر من عمره، وكأنه صديقنا السادس.

ثلجة تموز أخذت مكانًا كبيرًا في قلوبنا...

****

كارولين...

أقسم بالرب أني أخاف عودة جاد لدمشق لوالده، ولكن بعد مرور عشر سنوات أشعر بأن الأمر بات مستحيلًا، تعلقت به منذ كان طفلًا صغيرًا، كانت ألينا تذهب لعملها أحيانًا وتتركه معي، حتى أصبح قطعة مني، قطعة من قلبي، أنار حياتي بعينيه الزرقاء، وأضاف لها وهجًا من الأمل والبراءة، كنت عندما أصطحبه معي إلى الكنيسة أشعر بأنه رجلٌ وليس طفلًا، كنت أشعر بالأمان بوجوده بقربي، لا أحب أن تحدِّثه ألينا عن والده ودمشق وعن أصدقاء والده، لا أريده أن يتعلق بهم ولا أن يرسم لهم صورًا بخياله ولا أن يُفرغ لهم مكانًا بقلبه الثلجي الأبيض، أشعر وكأنهم بقع دم ستلوِّث ثلجة حياتي النَّقية، ولكن الآن وبعد هذه السنوات العشر أصبحت أخاف عليه من نفسه ومن أفكاره، لم يكن طفلًا عاديًّا كسائر أبناء جيله، كان لا يقبل شيئًا بعقله الباطني بسهولة وكأنه مغلَّف بكلمة "لكل شيء سبب"، يحتاج لسببٍ مقنع لأي شيء أخبره به، يتعمَّق بتفاصيل الأشياء وكأنه يحيا بين تلك التفاصيل.

ولكـن سـأدعو لـه دومًـا وسأصـلي لـه وكأنـه ابنـي الروحـي. ألينا منذ عشر سنوات رفضت الزواج، كانت تقول لي دومًـا: "اكتفيـت بقدري، وجاد هو قدري"، ولكن سبب رفضها للرجـال لـيس هـو جـاد فقط، ولكن حبها ليزن الذي لا تعترف به أَسَرَها بين ثنايا ذكـراه عشـر سنوات وأكثر، كانت لا تعترف بندمها وحبها لـه، ولكننـي أقـرب إليهـا من نفسها، أترجم تصرفاتها وأقرأ أفكارها دون أن تتحدَّث.

خلال هذه السنوات أُقسم بأنها كـادت أن تـذهب لدمشـق ألـف مرة ولكن كبرياءها منعها من ذلك، لا أعلم ما الأفضـل لهـا ولكـن مـا أعلمه جيدًا أني أرفض فكـرة غيـاب جـاد ولـو لمدينـة أخـرى بروسـيا، فكيف لقارة ثانية!

دانيا....

يزن، يزن تلك الكلمة التي ما إن كنت أسمعها منذ خمس عشـرة سنة حتى يتراقص قلبي مع إيقاع أحرفها الثلاثة، عشـقته منـذ كـان في الثانوية قبل سفره لروسيا، وما إن أتت أمه لطلب يـدي وافقـت دون تردد وكأنها طلبت لي أن أحيـا مـن جديـد، أمـي ذكَّرتنـي بجـود كثيرًا وقالت لي: "تذكَّري جيدًا مـا قالتـه أم يـزن؛ عنـده ولـد، هـذه ليسـت لعبة؛ إنها حياة كاملـة سـتختارينها " أصررت عـلى مـوافقتي ولم يـأتِ

اليوم الذي شعرت فيه بالندم، في بداية زواجنا كان يزن يعاملني وكأنني مربية جديدة لطفله فقط، لم يعتبرني زوجة؛ رغم ذلك كنت سعيدة وأنا بجواره، أحببت ابنه كحبي له، أو ربما كان لجود سحر خاص؛ لا أحد يراه إلا ويعشقه منذ كان طفلًا حتى هذا اليوم، بعد سنة من زواجنا بدأ يزن يتقرَّب مني أكثر وكأنه أصبح يراني بعينه الثالثة؛ عين قلبه. أتذكَّر ذلك اليوم الذي همس لي: "كم أنتِ جميلة"! أقسم بأنني وُلدت في ذاك اليوم، وأصبحنا عائلة نموذجية تكبُر بالحب، لا أعلم هل نسي ألينا حقًّا أم كان يحنُّ إليها بين الحين والآخر، كان يحدِّثني عنها وعن الذكريات التي جمعتهما، كان في كل مرة يختم حديثه بـ: "لكنني نسيتها تمامًا"، وكنت أبتسم وأُخفي نارًا أُوقدت داخلي، ربما كانت نار الغيرة أو نار الحيرة، فهل أنا أخذت مكانها حقًّا؟ هل بنيت سعادتي على سعادتها؟ ولكن الجميع يقول بأنها هي من ذهبت وتخلَّت عنه ولم تسأل عن طفلها ولو برسالة. بعد عامين من زواجنا علمت بأنني عقيم لا أُنجب، شيء ما بداخلي تمزَّق لا أعرف ما هو، ربما كانت أنوثتي؟

عندما أخبرت يزن بذلك ورأى حزني قال لي: "جود ابنك يا دانيا"، كان حقًّا كابني، ولكن بعد تلك الجملة أصبح أقرب مني وكأنه وُلد من رحمي في ذلك اليوم.

****

يزن.....

أيقظني صوت الكلاب تحت نافذتي، نهضت من فراشي بهدوء لكيلا تستيقظ دانيا وذهبت لغرفة الموسيقى، جلست على الكرسي بصمت يشبه صمت الليل الذي يحيط بنا، ضغطت على أول مفتاح.

عاد ذلك الصوت لأذني، عشر سنوات لم تستطع إخراجه.. شهقة فبكاء فشهقة، وضعت أصابعي على البيانو وبدأت أعزف بطريقة جنونية وكأنني أطرد ذلك الصوت الذي يزداد مع ازدياد العزف لينافس صوت الموسيقى وصوتًا ما بداخلي، زدت جنوني بالعزف ولم أدَع البيانو يتنفس، دقيقة سحبت وراءها عشرين دقيقة، ولم أشعر إلا بيد صغيرة توضع على كتفي "بابا" قال ذاك الصوت الرقيق "ما بك؟ لماذا تعزف بهذه الطريقة؟" التفتُّ إليه قليلًا وفجأة توقف الصوت، أوقفت نظري وكأنني أريد التأكد هل حقًّا توقف؟

احتضنت جود بقوة "هل أنت على ما يرام؟" قالها بقلق وعيناه تكاد تدمع، "نعم حبيبي على ما يرام" حاولت جعل صوتي متزنًا "لمَ أنت مستيقظ؟"

"سمعت صوت البيانو وجئت لأرى من هنا، فهذه ليست طريقتك بالعزف" قالها وكأنه يشك بأنني على ما يرام كما قلت له، "هيا لتنام."

ابتسم وقال: "أريد النوم بجوارك."

"ولكنك كبُرت ويجب أن تنام بغرفتك، سأبقى معك لتنام."

أومأ برأسه موافقًا، ذهبت معه لغرفته التي كانت تشبه كل شيء، عدا غرفة طفل، كانت غرفة سوداء بشرشف أسود حريري وغطاء وسادة أسود، فوق السرير صورة كبيرة يتوسطها جود بينما نقف بجواره أنا ودانيا، محيطة بصور لبيتهوفن وموتسارت وصور بيانو ومفتاح الصول، كان يشبهني بطريقة جنونية، يذكِّرني بنفسي التي لم تغب.

حاولت تغيير اللون الأسود في حياتي ولكن جود أعاد إحياءه. نام بسرعة بين يدي كالملاك الصغير بشعره الأشقر الطويل الذي كان يصل لكتفيه، لاعبت شعره قليلًا، فتذكَّرت شعر ألينا.

خلال هذه السنوات كنت أظن أنها ستأتي، كنت أسال نفسي دومًا: وماذا لو أتت؟ ولكن لم تضطرني للجواب؛ فهي لم تأتِ ولم تتصل حتى، أتذكر ذات يوم كنَّا معًا في مطعم بروسيا، كان يوجد بالمطعم بيانو، استأذنتها لأذهب للحمام وجلست على ذلك الكرسي المخملي وبدأت العزف حتى التفتت بسرعة إليَّ وكأنها تعرف عزفي وتميِّزه عن عزف غيري، في ذاك اليوم طلبت يدَها للزواج وألبستها الخاتم.

قالت لي: "سنخلِّد حبنا للأبد، لن نفترق" كم كانت كاذبة، لم تخلِّد سوى وجعي. ولكن رغم ذلك أنا أحب دانيا كثيرًا وأحمد الله دومًا لوجودها بحياتي.

فقط من عينيها أحيَا وأستمد القوة، كنت حائرًا هل أخبر جود بأن دانيا ليست أمه الحقيقية؟ ولكن بعدما شاهدت تعلُّق دانيا به وتعلُّقه بها، قلت من الأفضل ألَّا يعرف.

في الصباح استيقظت على صوت دانيا ورائحة القهوة تجول في أرجاء الغرفة، "هيا يزن، الساعة أصبحت العاشرة الآن." نهضت متكاسلًا، غسلت وجهي وذهبت للشرفة حيث كانت دانيا تنتظرني لشرب القهوة معًا. "بدون سكر؟" سألتها بشكل اعتيادي ليس أكثر، "عشر سنوات وأنت تسألني نفس السؤال"، ابتسمت لإصراري على نسيانها أو تجاهلها ما أحب، كانت تحفظ طباعي أكثر مني وربما تعرف كم تجعيدة في وجهي وكم شعرة بيضاء في رأسي، ورغم ذلك كنت أسالها نفس السؤال، ربما كنت أحب أن أستفزَّها لتؤكد لي بأنها تحبني وتعشقني، وأنا كنت كذلك، لا أُنكر.

"ذهب جود للمدرسة؟" سألتها لفتح موضوع واختراق فضاء فيروز التي تزيِّن كل صباح، "نعم، ولكنه لم يستيقظ بسهولة بالرغم من أنه نام مبكرًا"، ابتسمت بصمت، وارتشفت من فنجاني، كنت أتلذذ بمرارة القهوة وطعمها الذي يذوب في فمي، لم أكن أحب مع القهوة لا شوكولا ولا ماءً، عكس دانيا التي كانت تفضل قطعة شوكولا مع كل فنجان قهوة، وإذا سألتها: لماذا؟ قالت لي: "عشق أنثوي لن تفهمه."

بدأت بتحضير برنامجي التلفزيوني، "أرجوك يزن غيِّر هذا البرنامج؛ فأنا قلقة عليك." قالتها دانيا بصوت يعتريه الخوف وأتبعتها بتنهيدة، "ولكن أنا أجد نفسي هنا بين هذه الصفحات، لا تقلقي، لن أغوص بالسياسة كثيراً، ولكن هناك أمور يجب تسليط الضوء عليها."

"سيكون لك أعداء"، نظرت إليَّ بعينيها الخضراء" ولكن سأدعو لك دومًا."

منذ تخرجي وأنا أفكر ببرنامجٍ كهذا، أتكلم بكل وضوح عن الخلل في البنيات المكوِّنة لهذه الدولة والثغرات الموجودة في المؤسسات الحكومية والظلم المحيط بنا، أعلم أنَّ هذا الأمر خطير وقد يشكِّل لي أعداءً، ولكن لأي نجاح أعداء، والجُبن لن يوصل إلى نتيجة، كن شجاعًا تُرهب أعداءك، ثق بنفسك وبما تقوم به، اعمل بحب تنجح مهما كان الأمر صعبًا.

****

ألينا....

أتذكَّر ذلك اليوم الذي طردنا والد يزن من الفيلا، تفاصيله خُلِّدت بذاكرتي، كانوا يتحدثون بسرعة وبكلمات غير مفهومة بينما كنت

أتأمل ملامحهم. رغم الدقائق القليلة التي جمعتني بهم بقيت صورتهم مرسَّخة إلى اليوم.

كان لأم يزن شعر أسود قصير يصل إلى كتفيها، وعيناها واسعتان حادَّتان عسليتان، ورموشها قصيرة، ولها أنف صغير مقارنة بوجهها، وفمها مرسوم بإتقان، وشامة سوداء فوق فمها على الجانب الأيسر، جسدها كان ممتلئًا، وكانت قصيرة قليلًا، تظهر على وجهها ملامح الطِّيبة والحنان، وكان لبكائها أنينٌ كطائرٍ حزين يئنُّ في آخر الليل لفقدان أحد أولاده، بينما كان والده طويلًا شامخًا، لا يظهر عليه الكِبَر كثيرًا، عيناه كبيرتان، سوادهما يخيف، وحاجباه كثيفان يكادان يتصلان بعضهما ببعض، أنفه كان غليظًا متوسطًا وجهه المملوء بالتجاعيد، التي ازدادت واحدة في ذلك اليوم، كانت تبدو عليه السُّلطة والجاه. لا أعلم من منهما يشبه يزن، وكأنه أخذ من كل واحدٍ منهما صفات معينة "ماذا لو تقبَّلانا في ذاك اليوم!" أسأل نفسي دومًا وكأنني أحط اللوم عليهما.

قاطع سيلَ تفكيري صوت جاد وهو يفتح الباب عائدًا من المدرسة: "سلام يا أمي"، مع ابتسامة صغيرة خجولة، "أهلًا جاد، بدِّل ملابسك سريعًا واغسل يديك ريثما أُعدُّ لك الطعام." هز رأسه وذهب.

وعاد بعد قليل مرتديًا بيجامته السوداء، تأملته قليلًا وحمدت الله أنه لم يولد يشبه جدِّه، ابتسمت لمجرد الفكرة.

في مساء اليوم كنت في حديقة المنزل، وفجأة شعرت بشيء ما بداخلي يؤلمني، ربما قلبي! نعم، فأنا اشتاق إليه كثيرًا، وأشعر وكأن الكون برمَّته مقطوعة تذكِّرني به؛ حفيف الأشجار وصوت الليل وقطرات الماء من ذلك الصنبور القديم في حديقة جارنا وصوت جناحيِ العصفور وهو يطير بصمت، كلُّها تشكِّل معًا تلك المقطوعة؛ سيمفونية ضوء القمر؛ لأرى عينيه بسواد الليل وهو يعزفها وينظر إليَّ، أمقُتُ نفسي وأكره ذلك اليوم الذي تركته فيه، واليوم الذي طردنا والده، واليوم الذي لم أطلب منه البقاء هنا معي، ولكن إذا عاد الوقت للوراء، هل سأصلح أخطائي؟ أم أنني سأعيد ما فعلت؟

"هل أحببته لذاته"؟ دومًا أردد هذا السؤال على نفسي ولا أجد جوابًا له.

كلما رأيت جاد أتذكر طفلي الذي فرطت فيه دون أدنى محاولة مني، عندما أنجبتهما وعندما أرضعتهما من ثديي لأول مرة كان جود يرضع بنهم وكأنه يأخذ مخزونًا إضافيًّا، حتى شعرت بألمٍ في صدري، استغربت ذلك اليوم، ولكن ما زلت أشعر بذلك الألم إلى الآن.

كنت أقول من المستحيل أن أربي طفلين وحدي، لذلك لم أفكر كثيراً في إعطاء جود ليزن، ولكن بعد ذهابه شعرت بألم وضعف وفقدان، لم أظن أن الأمومة صعبة إلى هذا الحد.
تذكرت حينها عندما كنت في السادسة عشرة وتركت المنزل لأعيش وحدي، اتصلت بي أمي بعد أيام وقالت لي: "لن تشعري بالألم الذي تركتِه لي برحيلك إلا عندما تنجبين، لا أتمنى لكِ فقدانًا كفقداني."
أخذت كلامها بسخرية ووصفتها بالمتشائمة، ولكن أقسم بهذه اللحظة أني أريد تقبيل قدميها وأن أطلب منها أن تسامحني، فقدان جود علَّمني الكثير وحولني من امرأة مادية تعشق المال إلى امرأة تعرف معنى الحياة وأمٍّ تبكي وتتألم كل ليلة لغياب قطعة منها.

أسال نفسي كل يوم، "ماذا يفعل جود؟ هل يشتاق إليَّ؟ هل هو سعيد؟" أتنهد بتنهيدةٍ ساخنة تكاد تحرق ملامحي وكأن بركانًا موجود داخلي.

****

2007م

يزن...

مرت السنوات وكأنها لحظات عندما أرى جود يكاد يصل لطولي أتذكَّر تلك القطعة الثلجية التي تساقطت لتُثلج حياتنا منذ سبع عشرة سنة، غدًا عيد ميلاده السابع عشر، "الأيام تمر بسرعة" قلتها لدانيا وأنا أنظر لألبوم الصور المملوء بصور جود منذ كان طفلًا صغيرًا حتى أصبح شابًّا، صورة وهو يبكي وأخرى وهو ممسك بدبدوبه الصغير الأبيض الذي كان يشبهه وأخرى وهو يحاول الوقوف ممسكًا بدانيا وهذه الصورة بعيد ميلاده الأول، "انظري هذه الصورة منذ ست عشرة سنة، أتذكرين ذلك اليوم"، نظرت حيث أشرت لها وابتسمت " بالطبع في ذلك اليوم ظل يبكي كثيرًا وخاف من الشمع فوق قالب الكاتوه "، غمزتها وقلت: "لم يسكت إلا عندما حملتِه"، قلبت الصور وتوقفت عند صورة لجود وأبي وأمي كانا سعيدين به، أستطيع تلمس تلك السعادة من الصورة، بقيت أتأمل تفاصيلهم وضعت دانيا يدها على كتفي بحب وقالت: "الله يرحمهما، ادع لهما." ابتسمت ودعوت لهما بالرغم من أنهما لم يغيبا عن دعائي يومًا، قالت لي دانيا وهي تريد إخراجي من حزنٍ مفاجئ سيطر عليَّ: "ماذا

ستكون هديتك هذا العام"؟ سرحت قليلًا أفكر بكلامها وبما سأقول لها. "سيارة" بنبرة فخر، ولكن ما إن نطقت هذه الكلمة حتى عاد ذاك الصوت لأذني.. شهقة فبكاء فشهقة، وتزداد الشهقات لأضع يدي على أذنيّ بقوة وكأني أريد كتم الصوت، ولكن كان الصوت ينبع من الداخل وليس من الخارج، ردت محتدَّة "ولكن ما زال صغيرًا، بقي عامٌ ليستطيع إخراج شهادة سياقة"، قالت جملتها ونظرت لي "ما بك! هل أذناك تؤلمانك؟"

"لا شيء، كأن شيئًا دخلهما، وبخصوص السيارة أصبح بإمكان جود إخراج تصريح ينوب عن الشهادة بشكل مؤقت." "ولكنني أخاف عليه."

لامست خدها وقلت: "لا تخافي عزيزتي، سيكون على ما يرام دومًا." ابتسمت لتخفي قلقها ولكن بقيت ملامحها ثابتة لم تأخذ شكل الابتسامة.

****

ألينا...

غدًا سيصبح جاد في السابعة عشرة، هل حان الوقت لكي يعود لدمشق! شيء ما يمنعني من ذلك بالإضافة لكارولين التي تحاول دومًا منعي، تقول لي "هل تظنين الأمر سهلًا، يزن وجود لا يعرفان بوجود جاد أساسًا، ربما هذا جيد لكِ، لمَ تريدينه أن يذهب؟!"

لا أعلم لماذا، ولكن ربما لأن جذوره هناك في سوريا، حياته يجب أن تستمر بين والده وجود أخيه التوأم الذي رغم بعده وعدم معرفته بوجود جاد إلا أنه دومًا يقاسمه أحاسيسه، جاد مريض بمرض المزاجية التوأمية، ربما هو مرض يصيب كل التوائم، بينما يكون سعيدًا ويضحك فجأة ينعكس تمامًا وكأن شيئًا ما حدث لجود.

كنت مؤمنة بذلك جدًّا، وكان جاد يرفض ويقول: "شيء عادي." ولكنني متأكدة أنه ليس شيئًا عاديًّا، تغيير مزاجه المفاجئ والنغزات التي تزور قلبه بين حين وآخر وأنفاسه التي تكاد تنقطع فجأة وكأن أكسجين الكون قد ضاق عليه، الآن أعترف بجرمي حين فرَّقت التوأمين، أصبحت على ثقة بأن هذا جرم لا يمكن غفرانه، كان عليَّ أن أفكر بهذا الأمر قبل سبع عشرة سنة، ولكن! لم أكن أعرف بعلاقة التوائم الروحية.

جود وجاد لهما قلبٍ واحد، ينبض في الوقت ذاته، يتألمان معًا، يفرحان معًا، دون أن يشعرا؛ فهما معًا كل الوقت.

ذهبنا أنا وكارولين للسوق لنُعِدَّ احتفالًا صغيرًا لجاد، اشترينا البوالين والشموع والزينة وقطع الكاتوه والعصير، وعندما حان وقت الهدية وقفت حائرة!

"ماذا سنأخذ له؟" سألت كارولين وكأنني أسال نفسي- بصوت مرتفع، نظرت إلي كارولين بعينيها الحادتين بنظرة استغراب وقالت: "أنتِ أمه، ويجب أن تعرفي ما يحب وما يكره." صفعتني بجملتها.

جاد كان يحب الكتابة كثيرًا؛ لذلك فكرت أن آخذ له دفترًا وقلمًا مميزين، ولكن هل سيعجبانه! كنت ولأول مرة قلقة من هدية عيد ميلاده؛ لأنه بدأ ينضج ويكبر ولم يعد ذلك الطفل الذي سيعجبه أي شيء جديد، لفت انتباهي دفتر بقاعدة خشبية سوداء ومعه قلم أسود مرصَّع بكريستال كأنه ألماس، كان لون الكريستال بنفسجيًّا غامقًا يلمع بشدة، اشتريته رغم سعره المرتفع قليلًا، وتمنيت أن أشتري واحدًا ثانيًا لجود كما كنت أفعل كل سنة.

قلت بيني وبين نفسي: "في بداية الشهر القادم سأشتري واحدًا ثانيًا لجود لأضيفه لهداياه الست عشرة الموجودة بغرفتي."

****

جود...

استيقظت على صوت أمي في هذا الصباح، كان صباحًا جميلًا ولا سيما أننا بالصيف، شربت قهوتي مع أبي وأمي بحديقة المنزل.

"أشعر بوهج تفاؤل من وجهك ماما"!

"أنت وهج اليوم وكل يوم حبيبي." ابتسمت لي وتنحنح أبي دلالة على غيرته وقال: "اليوم سنتعشى معًا في الخارج"، "ولكن أبي، كنت سأخرج مع أصدقائي اليوم." رفض أبي بإلحاح كل محاولاتي للاعتذار عن العشاء العائلي، ولكنه قال لي: "تستطع الذهاب الآن، وتعود عند المغرب لنذهب"، أومأت برأسي، فهي فكرة لا بأس بها، صعدت لغرفتي وبدلت ملابسي. وتعطرت واتصلت بهم، والتقينا بالقهوة المجاورة للمنزل، للعب الشدَّة - لعبة الورق – سرقنا الوقت دون أن أدري حتى سمعت صوت رنة هاتفي، نظرت للشاشة، كان المتصل أبي،

وكانت الساعة قد اقتربت من السادسة، اعتذرت لأصدقائي وذهبت بسرعة للمنزل.

كانت أمي متأنقة بشكل ملفت، أبهرني جمالها وفستانها الخمري الأنيق وكعبها الأسود "كم تبدين رائعة"! قلتها لها دون مبالغة، "شكرًا، من جمال عينيك حبيبي"، وعندما نزل أبي ورأيت أناقته هو أيضا بالأسود لم أتمالك نفسي- من ملاطفته: "ما خطبكم اليوم! ستخطبون لي وأنا لا أدري؟ ما كل هذه الأناقة".

"هيا بدل ملابسك بسرعة، لقد تأخرنا"، ابتسم واصطنع غضبه، كم كنت محظوظًا بهما! كان يبذلان ما بوسعهما لإسعادي، كنت أتمنى أن يكون لي أخ أو أخت، ولكن عندما أرى دلالهما أحمد الله أن لا أحد يشاركني بهذا الحب كله.

وصلنا لباب المطعم، كان بابه مغلقًا، قلت لأبي: "ربما مغلق، لنذهب لغيره"، قال لي: "انتظر سأحاول" دفع الباب ودخل هو وأمي بثقة، تبعتهم، وفجأة سمعت أصوات فرقعات وتصفيقًا من الداخل، بسرعة تذكَّرت تاريخ اليوم (السابع عشر من تموز)، كيف نسيتُ هذا! ولكن وإن نسيت فلديَّ والدان مهما كبرت لن ينسيا هذا اليوم،

تفاجأت بوجود أصدقاء أبي (أعمامي الأربعة) وزوجاتهم وأولادهم وليال، كم كانت رائعة في ذلك اليوم؛ شعرها الأسود الطويل يصل لنصف ظهرها، وبياض بشرتها، وعيناها الرماديتان الساحرتان، وفمها اللوزي الصغير، كانت مرتدية فستانًا فيروزيًّا لركبتها، وشعرها يتطاير مع حركتها، وعيناها زينة هذا اليوم. ابتسمت لتأملي لها، وأنا ضعت بتفاصيل الابتسامة، وأصدقائي الثلاثة الذين كانوا معي منذ ساعة ها هم موجودون. كل شيء منظم ومميز كعادته؛ فأبي لا يترك تفصيلًا يمر سهوًا من بين يديه، كان يُتقن أي عمل يقوم به. اقتربت لهم أكثر، وأول من تحدَّث عمي خليل: "كل عام وأنت بألف خير، وأتمنى لك أن تصبح طبيبًا ناجحًا كما ترغب." ابتسمت: "وأنت بخير عمي، أُصبح مثلك وهذا يكفي." لم يكن إطراءً؛ فعمي خليل أثبت إبداعه بالطب والجراحة وكُرِّم أكثر من مرة كأفضل جرَّاح في دمشق. كلٌّ منهم هنأني بدوره، وعندما جاء دور ليال قالت لي بصوتها الرائع الخجول: "كل عام وأنت بخير جود." عشقت اسمي في هذا اليوم أكثر من ذي قبل، وكم تمنيت أن أقول لها أعيديه، "وأنتِ بخير ليال، تبدين جميلة." رغم صغر عمرها كانت ناضجة وملفتة؛ فهي كانت في الرابعة عشرة ولكنها تبدو أكبر من عمرها، " شكرًا، وأنت رائع دومًا".

كررت تلك الكلمة بسرِّي وابتسمت تلك الابتسامة التي تعبر عن سعادتي الداخلية القصوى التي ورثتها من أبي، كان احتفالًا جميلًا ويومًا رائعًا، قدموا لي الهدايا التي كانت مغلفة بشكل أنيق، وعندما جاء دور أبي قدَّم لي مفتاح سيارة، لثوانٍ لم أستوعب ما هذا الشيء وكأنه شيء غريب لأول مرة أراه، عندما استوعبت كانت فرحتي لا توصف، ليس بالسيارة فحسب، بل كنت سعيدًا بوجود أبي بذاته الذي لو استطاع لقدَّم لي عينيه، قبَّلت يديه وبادلني بابتسامة أرقصت قلبي، كان هذا اليوم يكاد أن يؤرَّخ بأفضل الأيام لولا ما حدث آخره وقلبه رأسًا على عقب.

****

جاد....

كنتُ تموزيًّا للصميم، أخذت من هذا الشهر الذي وُلدت فيه بظروف خاطئة ومكان خاطئ الكثير من الصفات، ولكنني كنت أمقت نفسي وأمقت تموز الذي شهد ولادتي أنا وأخي بعد زواج أعتبره غير شرعي، وكأننا وُجدنا بسبب علاقة لم يكن طرفاها قادرين على الاعتماد على نفسيهما وقراراتهما؛ متهورين.

لا أعلم هل أصبحت أكره أبي؟ لا أظن، ولكنني رغم ذلك لا أحبه، لا أشعر بانتمائي له وكأنه صورة مشوهة بذاكرتي.

لم أرَه إلا بصورتين مع أمي، ولا أعرف ملامحه وكأن الصور باهتة، ناقصة.

سألت أمي كثيراً عن سبب فراقها لأبي، ولكنها لم تخبرني، كانت تقول لي "لم يحِن الوقت لذلك، ولكل حدثٍ زمنٌ معين." إلى متى سأبقى مشتتًا؟! أشعر وكأنني لا جذور لي، لم أستطع تقبُّل روسيا كبلدٍ، وأمي تقول لي: ستعود إلى سوريا في يوم من الأيام، ولم أستطع أن أعتبر نفسي سوريًّا، كان هذا الشتات يقلقني دومًا؛ لا أرض ولا هوية ولا دين! هل أنا مسلم أم مسيحيٌّ أم بوذيٌّ! لمن أصلِّي وأين أصلِّي وكيف أصلِّي، ولكن ما أعلمه جيدًا أن الرب سيتقبلني وسيرشدني إليه في يوم من الأيام وللديانة التي سأصل إليه من خلالها.

بينما كنت أتمشَّى بشوارع موسكو التي أعتبر نفسي بها ضيفًا عابرًا، أتأمَّل تفاصيل هذه المدينة الرائعة، شاهدت زهرة صغيرة بنفسجية اللون تطل من حديقة أحد المنازل، كانت من نوع (الديلكينوم) وكان

يغريني هذا النوع من الورد؛ تدل على الحب والغموض، قطفتها لأقدِّمها لأمي؛ فهي تحب الورد أيضًا.

عدت للمنزل، أدخلت المفتاح بالباب سمعت تكته الأولى فالثانية، دفعته بهدوء كهدوء طبعي الخارجي، ودخلت فسمعت أصواتًا تقول من بعيد: "كل عام وأنت بخير جاااد"، اقتربت منهم أكثر: ماما وخالتي كارولين وصديقي الوحيد كريستوف، وتتوسط طاولة صالتنا الخشبية قطع الكاتوه والعصير، والبوالين في كل مكان، وفوق قطعة كبيرة من الكاتوه سبع عشرة شمعة! هل صرت بهذا العمر دون أن أشعر!

كانت موسيقى كلاسيكية تصدر من جهاز قديم تحتفظ به أمي، قدمت لها تلك الوردة البنفسجية بينما قدَّمت لي ذلك الدفتر الذي أبهرني لونه وجماله، وقررت أن يشهد كتابة روايتي الأولى التي أطمح بكتابتها دومًا، مرّ يوم متواضع جميل؛ كنت سعيدًا بهم رغم كرهي للاحتفالات والمناسبات التي أشعر أنها تقيِّدني، ولكن لحبي لهم ولفرحتهم بثُّوا السعادة في نفسي، ولكن في نهاية الاحتفال ضيق مفاجئ سيطر عليَّ، مزاجيتي تكاد تقتلني.. تموزيٌّ مزاجيٌّ، للحظة لم أعد قادرًا على جمع أنفاسي وشعرت وكأن رأسي قد ثقل فجأة.

****

يزن....

فرحة جود كان لها رائحة زهور الليلك المخملية، وكان لها صوت وكأنها مزيج بين ناي وكمان. ردَّدت بين وبين نفسي في هذا اليوم أكثر من مرة " ليت كل يوم هو السابع عشر من تموز، لكي يبقى سعيدًا كاليوم تمامًا"، ولكن السابع عشر لهذا العام لم يمر مرور الكرام بموسيقى ورقص وفرحة فقط، عند العاشرة مساء في هذا اليوم وبينما كنا مستمتعين بالحفل رأيت وجه دانيا شاحبًا، اقتربت منها: "ما خطبك حبيبتي؟ لا تبدين على ما يرام!" نظرت إليَّ بعينين ليستا كعينيها، كان بياضهما قاتمًا، ورموشهما ذابلة وكأنها وردة نُسيت من الربيع حتى جاء الخريف. بقيت تنظر إليَّ دون أن تتكلم وهي تحاول جمع قواها، أمسكت بها بقوة وهززتها "دانيا! هل تسمعينني" وعندما تركتها تساقطت من بين يديَّ وكأنها تهوي من جبال طوروس لوادٍ عميق مخيف مُوحشٍ مظلم. سمعت صوت ارتطامها بالأرض وكأنها ارتطمت بعد شهر من سقوطها من بين يديَّ.

في تلك الأثناء رأيتها بألف صورة؛ بصورة العروس يوم عرسنا، وصورة الأم، وصورة وهي تطبخ في مطبخ منزلنا وتقطع البصل، وصورة وهي

تقف أمامي وتهمس لي: "أحبك"، شاهدت ألف صورة ولم أشاهد صورتها وهي تتساقط كزهرة نيسان، كزهرة النسيان!

سمعت صوت جود وهو يصرخ بصوت عالٍ: "مااااماااا" هزني كزلزالٍ، لم أستوعب ما حدث، وقفت متفرجًا في الوقت الذي يجب أن أقترب منها وآخذها للمستشفى، ما هذه الأصوات!

شعرت نفسي وكأنني أسال أبي وأنا في العاشرة من عمري، لمَ كل هذه الأصوات! لمَ هذا العرَق الذي بدأ يتشكل على وجهي! لمَ قلبي ينبض ببطء!

"ماما، أرجوكِ أجيبيني"! هذا صوت جود.

وفجأة استوعبت كل شيء وكأنني رجعت من فضاء لفضاء بثوانٍ، انحنيت لدانيا، أمسكت يدها وهمست: "دانيا" فتحت عينيها ببطء، نظرت إليَّ، وكأن عينيها قد عادتا إليها، فمها يتراقص مع أحرف اسم جود الثلاثة، قالتها متقطعة: "جود، أعتنِ به جيدًا" واستوعبتها بتقطُّع أكبر من تقطُّعها هي، وأغمضت عينيها!

ويدها باتت خفيفة بين يدي، باتت مجوفة باردة، بقيت ممسكًا بها بقوة ولا أقوى على الكلام، حتى رأيت جود يهزها بقوة: "ماما، لا تذهبي"، وعيناه تلمعان باحمرار، لم أشاهدهما هكذا من قبل.

"هل هذه هديتي يا أمي؟!" لم أتمالك نفسي بعد هذه الجملة التي تفوَّه بها جود، ودخلت في نوبة بكاء هستيريَّة.

بكيت بصوت وبحرقة لم أبكِ بها منذ كنت طفلًا، كان خليل يفحصها، وعندما تركها وابتعد فهمت كل شيء، أمقتُ الموت! يأتي في أوقات غير مناسبة ودون تبرير ليأخذ قطعة ما بداخلنا ويدعنا نعيش بهذا التجوف الجديد، أتخيله وكأنه رجل يبلغ ألف سنة، شعره أبيض يصل إلى كتفيه، لحيته طويلة وعيناه شديدتا السواد، يرتدي نضارة بلا عدسات، بإطار فضي متآكل بالصدأ، حاجباه كثيفان متصلان ببعضهما وليس له فم ولا أذنان، عيناه واسعتان وشرستان وحكيمتان، نظراته بحد ذاتها تُميت.

شعرت وكأنني رأيته عندما أخذها واقترب مني وأخذ قطعة مني واقترب من جود أيضًا وذهب.

جاء جود وارتمى بحضني وهو يبكي، تـذكَّرت السـنة الماضـية، كـان جود يقول لي: "الرجل لا يـبكي، أليس كـذلك يـا أبي؟" وكأنـه يريـد أن يؤكد استنساخه لطباعي، ولكنه بكى! وبكيت! بكيـت لبكائـه المتقطـع ولموت دانيا، كان بلا سبب!

شعرتُ وكأن المطعم قد ضاق، أصـبحنا أنـا وجـود ودانيـا والمـوت فقـط في هـذا المكـان، لم أعـد أسـمع غيرنـا ولا أرى غيرنـا، ربمـا كـانوا محيطين بنا! وربما كان رامي ممسـكًا بـذراعي وأحمـد يمسـح دمعتـي ومحمـد يحـاول تهـدئتي، ولكـن لم أسـمع تلـك الأصـوات ولم أرَ تلـك الوجوه، رأيت جود قطعة ثلجية تبلغ مـن العمـر شـهرًا! يـبكي بشـدة لفقدانه ألينا، كان يجهش بالبكاء، نظـرت إليـه حـائرًا، عاريًـا مـن كـل مبادئي، منهكًا، لا أقوى على الكلام أو حتى على تهدئة بكائه!

تذكرت فجأة وبدأت أغنِّي له تلك الأغنية التي كان يحبها عندما كـان صغيراً، بذات الترانيم وبذات الصوت الـذي كـان يرتجـف بـين شـفتيَّ، نظر إليَّ جود؛ أغنِّـي لـه وكأنـه طفـل صـغير، واحتضـنني بقـوة وازداد بكاؤه، سمعت بكاء كل الموجودين!

وعند انتهائي قلت له: "بقينا وحدنا"! وابتسمت ودموعي تتساقط.

ألينا....

حالة جاد المتقلبة تُربكني، لستُ قلقة على جاد بحد ذاتـه، ولكـن هناك شيء يحدث لجود وهذا ما يخيفني، أشعر وكأنني مقيدة، أعلم أن جود يحتاج إليَّ، ولكنني بعيدة لا أستطيع فعل أي شيء.

كان جاد المرآة الروحية لجود؛ من خلاله أصل لدواخل جود وثنايـا قلبه، عند العاشرة والسبع دقـائق ازدادت نبضـات قلـب جـاد لدرجـة أنني سمعت تلك النبضات، احمرت عيناه وضـاق نفسـه، جلـس عـلى الأريكة وبكى.

جاد الذي لا يبكي إلا عندما يُقهـر، لم يتمالـك دموعـه اليـوم، ولـو تمالكها كانت ستحرق عينيه، كانت نظراتـه حـائرة وكأنـه يبحـث عـن شيء ما في هذه الصالة الصغيرة، اقتربت منه: "جاد"! لم ينظر إليَّ: "مـا بك!" سألته منتظرة منه كلمة ولكنـه لم ينطـق، بـل كـان يـرد بالبكـاء وشهقاته التي كان يشهقها عندما كان رضيعًا.

بقي الليل برمَّته يبكي، وشهدت تلك الليلة وفاة وولادة جديـدتين لجاد؛ فعندما استيقظ اسـتيقظ شخصًـا آخـر لا أعرفـه، وكأنـه أُصـيب باكتئاب لا سبب له!

أصبح قليل الكلام، كثير الشرود، لا أراه إلا نائمًا، يستيقظ لينام. اقترحت كارولين أن نأخذه لطبيب نفسي، ولكن شيء ما بداخلي يقول لي إنها حالة عابرة، ولكن كم مدتها! لا أحد يعلم، ظهرت أول تجعيدة على وجهه الشبابي في ذاك الصباح.

****

جود....

يوم عيد ميلادي كان يوم وفاتي، موت أمي أمات أشياء بداخلي؛ أماتني بجسدٍ حيٍّ، كيف لي أن أستيقظ صباحًا ولا أسمع صوتها! كيف لي أن أتجول بالمنزل دون أن أراها، وأن أعود من المدرسة ولا تفتح لي الباب، تلك العيون الخضراء كيف لي أن لا أرتسم داخلها عندما تتأملني؟!

ارتديت الأسود سبعة عشر عامًا تمهيدًا لحدادي، وسأرتديه العمر كله، انتهى العزاء في اليوم الثالث، ولكن عزائي لم ينتهِ ولن ينتهي.

أشعر وكأنكِ ما زلتِ هنا، أحدِّث صورك وأشمُّ ملابسكِ، أحيا بين تفاصيلك وما تركتِه من بعدك، وما بين الأشياء التي تحمل ذكراكِ

تركتِني أنا، وأنا بأمسِّ الحاجة إليكِ، بيتنا الكبير بات يخنقني، أريد أن أقضي عمري بجوار قبرك وبجوارِكِ.

أغلقت البيانو، ووضعت شريطةً سوداء على صورتكِ، أموت باليوم ألف مرة ولا أراكِ، كنتِ تقولين لي عندما كنتُ صغيراً بأن من يموت يرى من يحب من الأموات، فكيف أنا أموت كل يوم ولا أراكِ! أشعر وكأنني هزيل لا أقوى على الاستمرار، فلم أشعر بعظمتي يومًا إلا بوجودك؛ فأنا اليوم لستُ كالأمس.

شُيِّعت جنازتك، وشُيِّعت ولادة جديدة لي؛ ولادة كالجنازة، أشعر وكأنني بحاجة لشيء لأعبِّر عما بداخلي، أريد أن أثور؛ أن أرفض الموت؛ أريد أن أخلِّد من أحب، لا أريد حياة تأخذ منا ولا تعطينا، حياة أنانية فانية.

هناك رغبة تتملكني بأن أكتب، أريد أن أثور بالكلمات وألعن الحبر ليُخرج ما بداخلي ليُخرج ألمي على الورق الأصفر الباهت.

البارحة حلمتُ بشيء غريب: كنت قد اعتدت على الأحلام الغريبة، ولكن هذا المنام كان من أغربها؛ كنت بجانب القبر أبكي، وفجأة يدٌ وُضعت على كتفي، توقَّف الزمن، دموعي توقفت، وكل

شيء توقف، ولكن بقينا أنا وهو نتحرك، نظرت لوجهه لم أرَ ملامحه، كان نورًا قويًّا يجعلني أغمض عيني، ولكن شعرت وكأنه من يشاهد أحلامي عبر التلفاز، قد دخل وربَّت على كتفي، استيقظتُ مبتسمًا، وهذا ما استغربته! ولكن (مجرد أحلام) هذا ما يقوله عمي خليل.

أشعر بشيء ما بداخلي يتمزق، أسمع صوت تمزُّق.

جاد....

أشعر وكأنني وصلت لمرحلة متعمقة في اللامبالاة، لا أعلم هل أنا الآن أفضل أم لا، لست مباليًا، إذا قيل لي "أنت مريض بالسرطان وستموت بعد أيام" لن يتغير شيء، لا أتمنى الموت ولا أخافه، لست مباليًا، وإذا قيل لي "خذ هذا المال افعل به ما شئت" سأنظر بطرف عيني وأكمل طريقي لغرفتي لأنام، أكره النوم كثيرًا ولكنني أرغبه أكثر من أي شيء، أصبحت قادرًا أن أغمض عينيي خمس ساعات متواصلة وأنا لست نائمًا، وكأنني أهرب من الواقع دون أن أصدر صوتًا.

انظروا لوجهي ولملامحي، انظروا لعيني الخالية من اللمعة ومن الدمعة، هل هذا أنا؟! لا يهمني إن كنت أنا أم لا، لست مباليًا.

أتعلمون إذا جاءت تلك الفتاة الجميلة التي تغريني وقالت لي: "أنا لك" سأقول لها: هل يوجد هنا وسادة؟ أريد أن أنام. لم أعد أبحث عن وسادة كوسادتي تلك التي يملؤها القطن، لا مرتفعة كثيراً ولا فارغة كثيراً، لم تعد مميزة، أي وسادة تفي بالغرض، لست مباليًا.

لم يعد يغريني شيء؛ لا تلك الفتاة ولا الوسادة ولا المال، أشعر بأنني لا أشعر بشيء.

لست سعيدًا ولست حزينًا، لا أنتظر شيئًا ولا أترقب شيئًا، أنام كثيراً أهرب من نفسي إلى نفسي.

تذكرت تلك الجارة المسنة قبل أن تموت، كانت تأخذ حبوبًا نفسية مهدئة من الاكتئاب، كانت حالتها مشابهة لحالتي قليلًا، ولكن كان ذلك بسبب الدواء؛ عكسي تمامًا؛ فأنا لا أعرف لماذا، وبصراحة لست مباليًا.

روتين مميت، بإمكاني تغييره أو إزالته ولكنني لست مباليًا، لم أعد أشعر بشيء، أرى كل شيء حولي مجسمات؛ منها متحرك ومنها ذو رائحة يقال إنها جميلة، ومنها ذو طعم، ولكنها في نظري مجرد مجسمات.

يقترب مني مجسم ليقول لي كلمات ويبتعد، لم يعد يستوعب عقلي هذا الكلام ولا يستوعب مَن هذا؟ ربما كانت أمي؛ فلا يوجد في المنزل غيرها، ولكن ماذا قالت؟ ليس مهمًّا.

أنا حقًّا مريض باللامبالاة، لا أحد يسألني هل أنا سعيدٌ بهذا المرض أم لا؛ فأنا لا أعلم!

لا أتألم.. لا أتكلم.. لا أشتاق.. لا أضحك.. ولا أبكي.. أرغب بالنعاس، لست مباليًا، أظن أني بعالم آخر بين الوعي واللاوعي، ولكن هناك شيء بداخلي يتمزق، أسمع صوت تمزُّق.

2009 م

ليال

بعد موت خالتي دانيا بات كل شيء باهتًا، حتى الضحكات أصبحت روتينية ليس إلا، تلك الفاجعة لم تُحزن عمي يزن وَجود فقط؛ ولكنها زارتنا فردًا فردًا، لم أستطع أن أواسي جود ولو بكلمة؛ فهل لموت الأم مواساة؟!

كنت أتصل به أحدثه عن كل شيء إلا أهم شيء وهو أمه وكيف حاله بغيابها، كنت عندما أسأله: "كيف حالك!" أشعر بسذاجتي؛ فكيف سيكون! ولكنه سؤال اعتيادي فطري نبت على ألسنتنا وثبَّت جذوره، في أي لقاء أو محادثة تليفونية يجب أن نستخدمه، والذي أكَّد لي ذلك جواب جود الدائم بعد سؤالي وكأنه مجيب آلي: "على ما يرام" أو "بخير."

لم يكن كذلك؛ فأنا أكثر الأشخاص معرفة بجود؛ لقد كبرنا معًا، كان باهتًا وكأنه صورة من القرن الثامن عشر؛ مشققة باهتة ولكنها رغم ذلك ذات قيمة، وهو كان كذلك بالنسبة لي؛ فرغم حزنه ورغم انكساراته التي تكونت بعد رحيل أمه إلا إنه كان ذا قيمة أو ربما ذا أكبر قيمة بحياتي.

مرّ على تلك الحادثة عامان، كنت أخاف من عدم عودة جود، عودة نفسه التي أشتاق إليها، نفسه التي لا تشبهها نفس، تلك المتعالية عن البشر وكأنها وحي أُنزل إليَّ أنا لكي أومن بحبه وأحيا له.

كنتُ أقدِّسه لدرجة الجنون، كنت أرى فيه ما لا يراه الناس في هذا الإنسان الفنان، وإن صح التعبير فعلًا كنت أراه فنانًا ذا وجهين..

عازفًا ماهرًا لم يكن عزفه متقنًا فحسب بل كان يحمل إحساسًا رائعًا، لا يعزف دون إحساس؛ لذلك في الفترة التي مضت كان بأشد الحاجة إلى العزف ولكنه لم يفعل احترامًا لقدسية روح أمه.

وكنت أراه كاتبًا بالفطرة.. في هاتين السنتين التين مضتا أبهرني بكتاباته وبقلمه الذي وُلد معه، وُلد له وحده.

كان يكتب بتعمق وبدون قيود وكأنه يكتب لسنوات طويلة استطاعت أن تحرره من عبودية القلم واستطاعت أن تنقله إلى (الأنا) العظمى، وإلى العيش داخل تلك الورقة الصفراء أو داخل الحبر الأسود الذي لم يكن يستخدم سواه.

فنان ذو وجهين كجود لا يجب أن يُمرَّ عليه مرور الكرام، يُحب كشخص عاديٍّ، كان يجب أن يُعشق.. أن يبجَّل.. أن يُنحت له تمثال ويقدَّس. عشقت اللون الأسود منه، أصبحت أغوص به لأتعرف على غموض جود وعلى كبريائه الكامن بهذا اللون.

أصبحت أشتاق إليه عندما ننتهي من الكلام لساعات في آخر الليل وفي بدايته وفي منتصفه، كنت أشتاق لبحَّة صوته ولأن يحدثني عن شيء يخصُّه، أشتاق لماهيته لعالمه ولدواخله.

بعد الغداء اتصل بي جود، ما إن شاهدت اسمه على شاشة هاتفي حتى تراقصت طربًا. "ألو" قلتها بصوت خافت رقيق "أهلًا ليال، كيف حالكِ!" كدت أقول له: الآن أصبحت أفضل "الحمد الله بخير، وأنت!"

"بخير، هل عندك شيء اليوم!" سألني ودون أن أفكر هل عندي شيء حقًّا أم لا أجبته: "لا"، "لنخرج إذًا، بعد ساعة سأكون عند الباب." نظرت لساعتي، كانت تشير للثانية ظهرًا، " بانتظارك."

أسرعتُ لغرفتي، أخرجت ملابسي كاملة على السرير وبدأت مرحلة اختيار اللبس المناسب، وبعدها مرحلة الشعر ومستحضرات التجميل، بالرغم من كرهي لها إلا أني كنت أستخدم القليل منها عندما أذهب لرؤية جود.

رنَّ هاتفي وسمعت زمور سيارته في ذات الوقت، أجبت وكأنني لم أنتبه لمجيئه: "أهلًا جود"، " أنا في الخارج، هيا!"

وقفت حائرة أمام العطر الذي سأتعطر منه، استخدمت J'adore وارتديت الكعب العالي وخرجت له، كانت بيده باقة ورد حمراء جورية غرت منها للحظات.

نزل من السيارة، قدَّمها لي وفتح الباب وقال: "تفضلي سيدتي"، ضحكت قليلًا للطفه المعتاد وشكرته، وفي الطريق سألته: "إلى أين سنذهب؟" نظر إليَّ بعينيه الزرقاء وغمزني: "الآن ستعرفين كل شيء؛ لا تستعجلي القدر يا صغيرتي."

"لست صغيرة!" كنتُ أكره هذه الكلمة، ولكن من جود كنت أشعر بها وكأنها غزل، "بل صغيرة، والدليل على هذا آثار الشوكولا على فمك." وضعت يدي على فمي لاشعوريًّا وبدأت أمسحه، حتى سمعت صوت ضحكته وكأنه منذ دهر لم يضحك، شعرت بأنني وقعت بالفخ هذه المرة: "أكرهك!"، "وأنا أيضًا."

كان يتلذذ بتعذيبي وبحرق أعصابي، "أنت ماذا!"، "أنا مثلك" كان لا يقف حائرًا أمام كلمة وكأن كل الأجوبة جاهزة على لسانه.

أوقف السيارة وقال: "هيا"، كنا عند نادي (ديماس) للفروسية، قلت له باستغراب "لمَ نحن هنا!" ضحك وقال: "لكيلا ترتدي كعبًا مرة ثانية " وأكمل "لماذا يأتي الناس إلى هنا!"

"أمهارة جديدة وأنا لا أدري! دكتور وعازف وكاتب و..." قاطعني "ويهوى ركوب الخيل."

دخلنا، ارتدينا جزمات ركوب الخيل والقبعات التي تقينا إذا سقطنا، وامتطى فرسًا أسود بشعر طويل، بينما اخترت فرسًا أبيض، كنتُ أجيد ركوب الخيل؛ فمزرعتنا يوجد بها خيل، وكنت أهواه منذ صغري، ولكن أول مرة أرى جود يركب الخيل، ولم يكن مجرد هاوٍ؛ كان محترفًا، وكأنه رُبِّيَ بين الخيول. وكان بين الحين والآخر ينظر إليَّ بنظرات حب، أو يقترب بفرسه ويهمس لي: "تبدين جميلة!" كنت أذوب بكلمات جود، وأذوب بتفاصيله.

كنا نحب بعضنا لحد الجنون، وكلانا يعرف، وأظن الجميع يعرف، ولكن إلى هذا اليوم لم يعترف لي بحبه وأنا كذلك، كنا نتلذذ بهذه المرحلة، وكأنها قطعة شوكولا نريد أكلها لآخرها حتى لعق الأصابع، كان يتغزل بي ويصفني بالطفلة الصغيرة، وأنا أتغزل به وأصفه بالجاهل رغم كبره ورغم دراسته للطب.

كنت عندما أقول له: "أنت لا تفهم شيئًا" تحمرُّ أذناه وأشعر وكأن الدخان سيخرج منها، كنت أضحك بصمت بيني وبين نفسي.

بعد سباق نهم بالخيول، وبطريق عودتنا للمنزل همس: "بعد فوزي المعتاد عليكِ بكل شيء، تقبلين عزيمتي يا خاسرة!" ضحكت بصوت عالٍ: "أقبل."

أخذني لمطعم (العلية) بباب توما، كنت من عشاق مطاعم باب توما، وكل مرة أراها بشكل مختلف، تربط ما بين الكلاسيكي القديم والفخامة والأناقة.

تُجبِر الفرد أن يخلع مكانته الاجتماعية ليصبح الكل عُراة سواسية، من جاء بتاكسي أصفر، أو بميكروباص صغير، أو بسيارته الفخمة، سيدخل أزقَّتها مشيًا على قدميه ليخطو على تلك الحجارة المرصوصة بأناقة ليصل لمبتغاه.

دخلنا المطعم، طلب نرجيلة، قلت له بعتب: "ستصبح طبيبًا وما زلت تدخن النرجيلة؟!" نظر إلي بطرف عينه وقال: "هذه جزء مني؛ لا أستطيع العيش بدونها."

نظرت إليها وتمنيت كسرها في تلك اللحظة، أفلا يستطيع العيش بدون هذه! أهذه قطعة منه! وماذا عني أنا!

قرأ أفكاري وابتسم "ولكن إن غارت منها طفلتي ألغيها من حياتي بتاتًا" ابتسمت وقلت بعصبية مصطنعة: "لست طفلة"، "إن لم تكوني طفلة فسنفورة، لا تُنكري ذلك!" ضحك ضحكته الباردة التي يستفزني بها وأكمل: "أتظنين أني لم أنتبه كيف عجزتِ على ركوب الحصان! ولكن هناك حصان صغير الحجم في المرة القادمة." قال هذه الجملة والدخان يخرج من بين شفتيه مع كل كلمة ينطق بها، اكتفيت بزوره وكدت أشتعل غيظًا.

كريستوف

بالرغم من غموض جاد، إلا أنني كنت بيت سِرِّه، وبئره الذي يستمد منه قوَّته ويرمي به ضعفه، ولكن في آخر فترة أصبح كثير الشرود وكأنه يفكر بالعودة لدمشق بشكل جدِّيٍّ لم أره يفكر به من قبل، ربما اشتاق لتوأمه أو يريد تثبيت جذوره التي ما زال يحملها ويرفض غرسها هنا بروسيا.

جاد أعتبره أخي الذي أخاف عليه، ولكن رغم حبي له ورغم رغبتي ببقائه هنا، كان رأيي أنه يجب عليه الرحيل لمواجهة واقعه، لمواجهة نفسه.

كنا منذ المرحلة الإعدادية معًا، وكان جاد انطوائيًّا قليل الكلام مع غيره؛ لذا لم يكن لديه أصدقاء، وكنت صديقه الوحيد، تعمقت به، غصت بدواخله، أحببته وخفت عليه! لا أعلم لماذا! ولكن لأنه كان فطنًا لدرجة تُخيفني، لا يتقبَّل الواقع بابتسامة، ويستمر عند نقطة ما انتهى عندها أحدهم، كان يحب أن يبدأ من الصفر دون ماضٍ، دون الأمس، ولكن لا يمكنه قتل جاد والبدء بشخصية جديدة، أتذكَّر عندما رأيته أول مرة منزويًا بحديقة المدرسة خافضًا رأسه بين قدميه، سارحًا بخياله بعيدًا، بعيدًا عن نفسه، "أنا كريستوف، وأنت؟" اقتحمت فضاءه، نظر إليَّ بعينيه الغامضتين كمحيطين: "يسمونني جاد." كانت ملامحه جامدة خالية من الابتسامة حتى، "أنا من البرازيل، وأنت؟" "تستطيع أن تقول من سماء تموز، تموزيٌّ أنا."

لم أفهم في ذاك الوقت ما يقصد، ولكنني شعرت وللحظة بأنني أكلم عالِمًا من العلماء؛ أجوبتهم بحاجة لكتب لإدراكها.

منذ ذاك اليوم ونحن صديقان، ومنذ ذاك اليوم وأنا أتخبَّط لفهم أجوبته وكلماته. في البارحة ذهبت لأراه، لم أجده في المنزل، اتصلت عليه ولكن كان هاتفه مغلقًا، كعادته.

ذهبت لمنطقة ما بين الجبال؛ كان كثير الذهاب إليها، رأيته كما رأيته أول مرة خافضًا رأسه بين قدميه وشاردًا بخياله. "جاد!" لم ينظر إليَّ "لِمَ هاتفك مغلق!"، أجاب دون أن يلتفت: "ربما أراد أن يأخذ قيلولة، أسأله هو." ضحكت بينما بقي هادئًا، "ما خطْبك يا فتى! الحياة قصيرة، لا تُحزن نفسك!" نظر إليَّ "أتظن ذلك!"

وكأنني بهذه الجملة اختصرت عليه ما كان يفكر به منذ ساعات، "نعم؛ ولذلك هيا لنذهب، أتحداك بكُرة المضرب." ابتسم وقال: "وإذا تغلَّبت عليك، تدعوني للعشاء!" ضحكت وقلت: "موافق، ولكن إن تغلبت عليك أنا فستأخذني للبار أربع ليال متتالية." نظر إليَّ بثقة وقال: "هَيا."

وفي الطريق قال لي: "قل لي يا صاح، ما جاء بك من البرازيل!"، "جئت لكي أراك وأُغرم بك ونتزوج" ضحكنا كثيرًا وقلت له: "أتريد التخلي عني يا جاد!"، ضحك من أعماق قلبه.

كنت أشعر وكأن لضحكاته صدًى يدوِّي بموسكو، وكانت لي رغبة شديدة برؤية جود.

أظن إذا التقيا معًا أشعر وكأن محيطين سيصطدمان، أتمنى أن أشهد ذاك اللقاء.

****

يزن...

أصبحت غرفتي شاحبة مقيتة، صغيرة تكاد تخنقني، ليتها لم تذهب، وهل يفيد بشيء التمني؟! سنتان كفيلتان بموت وولادة الكثير من الأشياء في داخلنا، ولكن ما لم أستطع المرور عليه دون التوقف مرات ومرات هو لِمَ ماتت!

أسال نفسي دومًا؛ فهي لم تكن مريضة أو تعاني من شيء، كانت قبل موتها بساعة مبتسمة بشموخ، تلمع كجوهرة تُضاء من كل الجهات، يفوح عطرها ليداعب كبريائي ليراقص حواسي رقصة التانجو، كانت بكامل أنوثتها وبكامل أمومتها، أتذكَّر تفاصيلها وكأنها أمامي، في مطعم (التلال) وعلى الكرسي الرابع كانت تجلس وكأنها عروس البحر.

بعد رحيلها خفت على جود، الذي لم يستطع تقبُّل هذا الموت بسهولة، كان أحيانًا يختفي لأجده بـ (قاسيون) ينظر من أعلى الجبل إلى دمشق ويلومها، كان يحدثها كطفلٍ يحدِّث والدته، كان يبكي هناك في قاسيون ويبكي، كان يغيب عن العالم ويغيب عن نفسه،

يتجرد من كل شيء؛ من كبريائه، من الحزن الجامد؛ من المفروض ومن الممنوع، ومن العادات ومن التقاليد، كان يجلس على ذاك الكرسي المعتَّق بالوطن، المعتَّق بالأمل.

كانت قاسيون دِفأه في الشتاء، وكأسه الذي يثمل به ويثمل منه، خمره المباح وعشقه الفواح، وهل للدمشقي أن لا يعشق قاسيون؟!

كان يجد عطف الأم هناك في ذاك الجبل، ينعزل كما ينعزل كل شيء، يسمع صوته الداخلي مع ريحٍ باردة وريحٍ دافئة، يستنشق الياسمين ليملأ رئتيه برائحتها، وهل للدمشقي أكسجين غير الياسمين؟!

كل إنسان يحتاج أن يتوحَّد قليلًا، أن ينزوي، أن يختفي، أن يراجع حياته بصمت، يعيد ترتيبها، يحدِّث نفسه ويجيب نفسه؛ التوحد ليس جنونًا! بل حالة تساعدنا أحيانًا على فهم الحياة؛ فبين مطباتها يجب أن نتوحد، نتوحد مع أنفسنا، ونجتاز العالم إلى دواخلنا.

عند الفطور في الصيف الماضي، "انتهيت من البكالوريا، ماذا عن جامعتك! ماذا تريد أن تدرس؟" سألته وكنت أعلم جيدًا برغبته بالطب. "أريد أن أدرس الطب البشري كعمي خليل". "ستدخل جامعة خاصة!"، "جامعة القلمون!"، "فليكن".

وها هو قد أنهى السنة الأولى من دراسته، تذكَّرت الصيف الأول عندما جئت من روسيا لكي أقضيه بين ربوع دمشق، كيف لنا أن نحيا بلا دمشق؟!

في البارحة كنتُ أنا ورامي في القهوة نلعب الشطرنج وما بين المواضيع الكثيرة التي تحدثنا بها قلت له: "أظن بأننا سنصبح أكثر من صديقين!" وضحكنا. قال: "أتقصد عائلة!"، "ربما جدَّين لنفس الطفل!"

قال لي وهو يضحك "والمضحك أنهما يظنان أن لا أحد يعرف سواهما!" وأكمل: "المدرسة التي يتعلمون بها تخرَّجنا منها من سنين"، سألته: "ولكنهم مناسبان لبعضهما جدًّا أليس كذلك؟"، نظر إليَّ وقال: "نعم، ولكن يجب أن يهتما بدراستهما أولًا؛ ليال ما زالت صغيرة، وَجود أيضًا"، ما استغربته بذاك اليوم أننا لم نتحدث عن اختلاف الأديان، وكأننا تحررنا من هذه العبودية، سألت نفسي: ماذا لو كنا كآبائنا!

ظل جود وليال يحلمان ببعضهما دون أمل! كان حبهما وحلمهما قد تحطم لمجرد أنه وُلد مسلمًا ووُلدت مسيحية، ولم يكن لهما مجرد

الحق باختيار ديانتهما، أفلا يكون لكل منهما الحق باختيار شريك حياته!

أحمد الله بأنني لست كأبي. ليس كرهًا مني! ولكن الإنسان يتطور ويتحضر وليس العكس، وأتمنى أن يأتي اليوم وأجد جود أفضل مني؛ سأكون فخور به جدًّا.

في صباح اليوم شربنا القهوة أنا وجود في حديقة المنزل، وكنتُ قد وضعت قطعة شوكولا على صحن فنجان قهوتي كما كانت تفعل دانيا، وكلما شربت من الفنجان أُتبعها بقضمة صغيرة من الشوكولا، حدَّثت نفسي بصوت هامس: "لا بأس بها، ليست مجرد عشق أنثوي" قال لي جود: "أتُحدِّث نفسك يا أبي!" وضحك، "أتراني مجنونًا يا صغير؟" وابتسمت. "ابقَ مبتسمًا دائمًا." قالها لي وابتسم كابتسامتي.

"أبي، كم كان عمرك عندما تزوجت أمي؟" سألني، وللحظات تشوشت لا إراديًّا بين ألينا ودانيا، وأجبته "22، لماذا؟"، سرح قليلًا وهو يحسب وقال: "أي بعد ثلاث سنوات، إنها كثيرة!" وتأفف.

"ما بك يا ولد! أنت لن تتزوج إلا عندما تنتهي من الطب كعمك خليل." للحظة شعرت وكأنه كرِه خليل، وضحكت بيني وبين نفسي، وهو نظر إليَّ بغيظ واكتفى بالصمت.

****

جود

لم تكن فتاة اعتيادية، كانت جامحة، غامضة، عاشقة، تثور من الرفض وكأنها خُلقت ليقال لها (نعم)، تكره المفروض عليها وتكره فعل الأمر منذ كانت طفلة صغيرة بالمدرسة، كانت لا تُعرب فعل الأمر على أنه فعل أمر، وكأنها خارجة عن القانون وخارجة عن (الأمر)، كان في عقلها مكتبة ضخمة تخيفني وتستهويني بذات الوقت.

أرغب بتصفحها والتعمق بها حرفًا حرفًا؛ ففتاة مثلها لا أستطيع وصفها بالقارئة النهمة، وإن كانت كذلك؛ فلا أظن أنها مجرد قارئة كسائر القراء؛ فهي إن صحّ التعبير لجنة نقد متكاملة؛ وهذا ما كان يخيفني.

كنت أبتعد عن القلم بسببها، وكأنها ستنتقد ما سأكتب وستُخرج الأخطاء والركاكة ونقاط الضعف بكلامي.

رغم معرفتي بها من الصغر؛ منذ وُلدت، ولكنني أظن الآن أنها مختلفة ومتمردة، وهذا ما جعلني أغوص بعشقها؛ فهي التي لا تشبه سواها ولا تُقارن بغيرها؛ فهي لا تنظر إلا لـ (إلاها)، أنوثتها مُفعمة وثقافتها مُفخمة، كنت لا أضاهيها بشيء سوى بالموسيقى، كانت تغمض عينيها وهي متكئة على البيانو الذي أعزف عليه، شعرها الأسود يغرق بسواد البيانو حتى يندمجان، ولا أستطيع الفصل بينهما، أشعر وكأنها خُلقت لتقف متكئة بيدها على البيانو تستمع لعزفي.

لم نكن مجرد عازف ومستمعة؛ كنا وكأننا في فضائنا نتسامر ونحدِّث بعضنا بما يعجز الكلام عن قوله، كانت تعترف لي بأن الموسيقى فاقت الأدب، قالت لي مرة: "قرأت آلاف الكتب لأكبر الكتَّاب وأقدمهم، غصت ببحور الأدب، ولكن لم أقرا كلمات كالتي تقولها بعزفك بحياتي قط ." كنت فخورًا آنذاك؛ فها أنا أتغلَّب عليها بشيء.

تجردت من الأديان، وأصبحت كالعارية بين يدي الخالق، تعبده بتعمق بعيد عن عادات وتقاليد الأديان الوراثية البعيدة عن روحانية

الإنسان، قالت لي عند باب الكنيسة ذات يوم: "ورثت المسيحية من أبي؛ لذلك أحترمها، ولكن الله يقطن في دواخلنا وفي سلوكياتنا وليس في الكنيسة أو المسجد أو المعبد".

لم أفهمها حينذاك، هل هي متمردة عن الأديان أيضًا؟ كيف تمكنت؟

ولكنها لم تكن متمردة، بل كانت متعمقة بالأديان، وهذه الشعرة التي تفصل بين الكفر والتعمق بالله التي يجهلها الكثير من الناس، وجهِلتها ذاك اليوم.

لمجرد أنها (هي) لا أستطيع أن أقول لها (أحبك)، فهل من الممكن لـ (هي) أن تتقبل كل تلك المشاعر بكلمة! وهي التي إن أرادت أن تعبر عن شيء غاصت بالكتب والموسيقى والفلسفة، فهل تقبلني جاهلًا بحياتها؟

كنت أريد استعجال القدر واللعب بالتواريخ لأتقدم لها وأخطبها، أريدها لي.

أرى الأسرة بها، وأراها الأسرة، لا أستطيع أن أعشقها كالمراهقين: وردة حمراء وأغنية لإليسا وفي نهاية المطاف أتركها لرجلٍ ثانٍ وأتزوج بفتاة

أعطاها رجل غيري وردة حمراء وأهداها أغنية لإليسا؛ أريد أن أعشقها بالمقلوب.. أن أبدأ قصتنا بزواج ومن ثم نبدأ مرحلة العشق الجنونية.

أن نذهب لملاهي (الأرض السعيدة) وهي حامل، وأن أسرقها من بيتها لأريها ما حفرته على كرسيي في قاسيون، وأن أحملها وهي تقطع البصل والطماطم وأركبها بالسيارة ببيجامتها الوردية، وميكي ماوس ينظر إليَّ من كنزة بيجامتها. أريد أن أعشقها دون سيشوار أو مستحضرات تجميل، برموشها هي ولون شعرها الأسود ورائحة طبيخها بعيدًا عن روائح العطور الفرنسية.

لذلك كنت أخاف أن أقول لها "أحبك"؛ لأن كل الذين نطقوا بها ذهبوا.

****

ألينا

مشتتةٌ أنا، سألني جاد في هذا الصباح "ماذا لو عدنا لدمشق، كيف ستبررين إخفاء سرِّي!" كان سؤاله حادًّا بالنسبة إليَّ، ولو كنت أعرف جواب هذا السؤال لم بقيت هنا إلى الآن.

فحقًّا ماذا سأقول ليزن ولجود! أي خطأ سأبرر وبأي وجه سأذهب إليهم! سبب تركي ليزن أول مرة، أو سبب تركي له أن يأخذ جود دون مقاومة مني، أو سبب إخفائي سر وجود جاد!

كم هي كثيرة أخطائي! وكم أنا مشتتة حقًّا! ولكنني تغيرت، أعرف ذلك جيدًا، وربما جاد أيضًا يعرف ذلك؛ ولكن هل هناك مبررات لهذه الأخطاء! كان يزن يقول لي: "كوني صادقة وافعلي ما شئتِ." فإن وقفت أمامه وقلت له بصدق عن حماقاتي هل سيغفر لي!

إذا قلت لجود بأني لم أعرف معنى الأمومة إلا بعد رحيله، هل سيتقبل وجودي!

رباه اغفر لي وبدِّل تلك الأحقاد بغفران؛ فأنا مشتاقة لهم وأتمنى العودة، عودة من اللاوعي إلى الوعي؛ فهم وعيي، وهل للإنسان أن يعش حياته بلا وعي؟!

نضجَ جاد بما يكفي ليحمل العبء معي، أريد أن أخبره بالحقيقة كاملة ولكن لا قوة لي على اللوم والعتب وإن كنت أستحقهما..

أنانية أنا، أعترف بذلك، ولكن ما حدث قد حدث، ويجب إصلاح ما تسببت به، أتذكَّر أول يوم لجاد بالجامعة، عندما رجع إلى المنزل سألته: "كيف كان يومك؟" أجابني بتنهيدة خفيفة: "كان جميلًا، ولكن لا أعلم هل ستنقضي الأربع سنوات على ما يرام؛ فأنا مجرد ضيف." تذكرت حينها أنه قال ذات الكلمة عندما دخل المرحلة الإعدادية، وعندما دخل الثانوية، وها هو بعد عقدين يشعر بأنه ما زال ضيفًا في روسيا.

دخل إدارة الأعمال لولعه بأمور الإدارة، وكنتُ فخورة به؛ ليس لمجرد دخوله هذا المجال، ولكني فخورة بأنه يفعل ما يحب ويصل لهدفه دومًا.

****

جاد

"2-7 يا صاح، متى ستنضج وتتعلم اللعب!" قلتها بابتسامة نصر، "غدًا سأريك!" كاد الشرر يتطاير من عينيه لخسارته المعتادة. ضحكت وهمست له: "وإن غدًا لناظره لقريب." وأكملت: "هيا إلى المطعم التايلاندي الجديد." ومشيت مختالًا.

"انتظر! تعالَ يا جاد." واصلت المشي- دون أن ألتفت له، واستمر بالشتم حتى باب المطعم، سألنا النادل عن طلبنا، ابتسمت وطلبت سرطان البحر بالريحان بجانب صلصة جوز الهند وحساء سبانخ مع هريسة الفطر وسلطة التوت البري ومحارات صدفية مشوية - نظر إليَّ كريستوف بعيون حمراء - أكملت: وعصير (بلو كوكونت مارجريتا)، فقط. نظر النادل لكريستوف وسأله: "وأنت سيدي؟" فأجاب بحدَّة: "كأس ماء فقط."

أتذكَّر تفاصيل وجه كريستوف عندما أعطته النادلة الفاتورة وبدأ ينظر إليها وإليَّ بغيظ بينما كنت أقول له: "نسيت الحلو!" دفع الفاتورة بسرعة تهربًا مني وخرج. ضحكت ذاك اليوم عن شهر، وهو دفع مصروفه الشهري بعد تلك الهزيمة الساحقة.

يتداخل الزمن، تتحول دوائر العرض وخطوط الطول لدوائر وخطوط حقيقية وليست وهمية، فيصبح التاريخ 2026 تقريبًا، ولكن لا يهمني التاريخ كثيرًا، والمكان ربما في غابات الأمازون أو في أمريكا الجنوبية، كلها تفي بالغرض.

رائحة ورد قوية تثير حساسيتي فأبدأ بالعطاس، هناك شخص يناديني من بعيد، استبدل اسمي بـ "جاك"، ربما أخطأ وربما كان قاصدًا ذلك.

نظرت للخلف وإذا به رجل عجوز مُنحني الظهر يتكئ على عكاز قوي يصدر صوتًا، حليق اللحية، شارباه غليظان وشعره أبيض، ينظر لطرف واحد، وكأنه أعمى، هل حقًّا كان أعمى! اقتربت منه.. كلما اقتربت يبتعد، بدأت أتعب، سعالي يزداد، تحولت خطواتي لهرولة، ومن ثَمَّ لجري، وأخيرًا وصلت إليه، ابتسم وقال باللاتينية: "تصل لهدفك دومًا يا جاك." الغريب أنني فهمته وكأنني تعلَّمت اللاتينية فجأة.

"جاد سيدي." قلت له مصححًا. ابتسم وقال: "جاك يا صغيري، جاك"، جلس على صخرة وأتت الثعابين حوله بفرح، شعرت للحظة بالخوف يعتريني.

قال لي: "اجلس"، جلست والتزمت الصمت، همس: "أسوريا ما زالت بخير؟" نظرت إليه مطولًا ولم أفهم سؤاله، كيف بخير؟ ولِمَ يسألني أنا؟ ولكن من نظرته المترقبة أجبت: "نعم." وصوتي يرتجف يكاد يختفي،

"لم يعد هناك الكثير من الوقت، اذهب لسوريا يا صغيري... أذهب." ردد كلمة اذهب ألف مرة واختفى، بدأت أبحث عنه والكلمة تتردد بأذني، وضعت يدي على أذني وصرخت بصوت عالٍ: "لاااا " واستيقظت.

عاد التاريخ لـ 2009، وعدتُ لموسكو، وعلى سريري نفسه، نظرت حولي، كل شيء هادئ، كل شيء صامت، فتحت الدفتر وغرقت بصفحاته وما زلت أتذكَّر صوته الخشن وكلمة: "اذهب."

أخرجت من الدرج المجاور لسريري ورقة كبيرة وقلم تخطيط، كتبت عليها تلك الجملة: "لم يعد هناك الكثير من الوقت، اذهب لسوريا." وألصقتها مقابل سريري، وبقيت حائرًا أمام تلك الجملة وصورة الرجل التي طُبعت بذاكرتي.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا، خرجت من المنزل قليلًا لأستنشق هواء الفجر وأكسجين الحياة الباكرة، لأنني وُلدت في بداية التسعينيات، كنت أعشق البدايات بكل شيء، ولا سيما بداية الصباح، كانت الشمس برتقالية اللون تنظر إليَّ وكأنها تتمنى لي يومًا جميلًا أفضل من الأمس.

كنت أومن برسائل القدر وتحذيراته المبطنة، وكنتُ أخاف ألَّا أنتبه لإحداها فتنساني وتتجاوزني وتُكمل طريقها وأبقى حائرًا ضائعًا بين ماضٍ وحاضر ومستقبل؛ تلك الأزمنة التي أمقتها وأمقت التطلع إليها، ماذا لو تداخلت وأنتجت زمنًا ثلاثيًّا لا يحمل ماضٍ ولا ينظر لمستقبل ولا يبقيك حائرًا بحاضر سيصبح ماضيًا في الغد، لتنسَ لم أنت هنا! لمجرد تلك المسميات الثلاثة، ولمجرد وجودها الوهمي بحياتنا يسجن الشخص نفسه بين جدرانها، يعاقب نفسه بمسمى (الماضي)، ويبقى حائرًا خائفًا بمسمى (المستقبل)، فينسى نفسه ويمر يومه (الحاضر) ليجد نفسه لم يفعل شيئًا سوى الندم والخوف.

سمعت مواء قطة صغيرة، كان مواءً حزينًا، اقتربت من مصدر الصوت بين شجيرات صغيرة في حديقة جارنا المسن، شاهدت قطة صغيرة جدًّا بيضاء وبجانبها قطة ميتة أظن أنها أمها، قطَّع قلبي صوتها الحزين، حملتها بلطف وأدخلتها للمنزل وضعت لها القليل من الحليب بصحن صغير، بدأت تشرب بجوع واضح وأنينها بدأ يتقلص، سألت نفسي بصوت عالٍ: "أمن ضحايا تموز أيضًا أنتِ؟" ونظرت لعينيها الحزينة، حتى الحيوانات تُعذب بالفراق، هل لأحد احتمال وجع الفراق؟

قررت الاحتفاظ بهذه القطة الصغيرة بمنزلنا لعلِّي أخفف من ألم فراقها قليلًا.

****

محمد

اقترب رأس العام وكان لا بد من كسر الروتين والملل الذي سيطر على صداقتنا وعلى (الشلة) كما نسميها، فمنذ سنوات لم نذهب برحلة معًا، ومنذ أشهر لم نجتمع، وكان لا بد أن نضع مخططًا لرأس العام في هذه السنة.

اتصلت بيزن أولًا واقترحت عليه أن نذهب لبيروت لمدة يومين، رحب بالفكرة ولكنه قال لي: "لا بد أن أسأل جود؛ فكما تعلم امتحانات الفصل الأول قد اقتربت." أجبته: "لا بأس، اسأله وقل لي ماذا سيقول، سأتصل ببقية الشلة ريثما تحدثني"، "أوك."

اتصلت بعده برامي الذي قال لي لا بأس، وسأل زوجته وليال وقال: "نحن جاهزون، متى الانطلاق؟" قلت له: "انتظر لنتفق جميعًا ونحدد الوقت المناسب"، "فليكن."

اتصلت بخليل الذي توقَّعت رفضه بسبب انشغاله بالمستشفى، ولكنه أيَّد الفكرة بقوله: "جميعنا بحاجة لهذه الرحلة، وخصوصًا يزن وجود."

وأخيرًا اتصلت بأحمد، لم يكن عنده أي مانع، وبعد قليل اتصل بي يزن؛ "ألو"، أجبته، "جود موافق، وقال بأنه يحتاج لرحلة كهذه قبل امتحاناته"، "فلننطلق الخميس!"، "أظن أنه مناسب، أخبرت الشباب؟"، "نعم، وجميعهم أيَّدوا الفكرة وبانتظار تحديد الموعد"، "نلتقي الخميس إذًا، سأصطحب بيت رامي معي، وأنت وخليل معًا، أما أحمد فيذهب مع عائلته بسيارته"، "هذا جيد، أفضل من خمس سيارات، واللقاء سيكون أمام بيتك في السادسة صباحًا"، "أوك."
بدأ التحضير لهذه الرحلة، ومرت الأيام بسرعة ليوم الخميس يوم ذهابنا، وكنا قد جهزنا كل ما ستحتاجه الرحلة، وجهزنا نفسياتنا لكسر الروتين القديم.
كنتُ أرى بملامحنا الجافة في كل لقاء ضرورة ملحة لتغيير كهذا، وإن كان لفترة قصيرة ولكنه سيعيد لحياتنا البهجة والحيوية، هذا ما كنتُ أرجوه وهذا ما يجب أن يحدث حقًّا.

****

ألينا

"غدًا نهاية العام، هل تفكر بشيء بهذا اليوم؟" سألت جاد على طاولة الطعام الهادئة دومًا كهدوء طبعه، أجاب دون أن ينظر إليَّ وهو يحرك ملعقته بصمت "أفكر أنه وأخيراً سينتهي كانون الأول"، "ولِمَ؟"

"أكره النهايات وبما فيها نهاية العام، أحب كانون الثاني أكثر؛ أنسيتي أني ولدت ببداية التسعينيات؟" نظرت إليه باستغراب، كثيراً من الأوقات لا أفهمه! أشعر أحيانًا بأنه خُلق بلغز! وأن كل شيء بحياته لغز حتى كلامه مبطن بالألغاز، قلت له لطرد الأفكار من رأسي: "لن نحتفل!"، "بالرغم من كرهي للاحتفالات ولكن يجب أن نحتفل بذهاب كانون الأول." وأكمل كلامه بابتسامة: "سأعدُّ لهذا الحفل شخصيًّا هذه المرة"، " أنا بانتظار حفلك."

غرق بأفكاره بصمت يشبه صمت كل شيء، إلا دواخل جاد التي كنتُ أشعر بضجيجها بكل وقت وتتداخل الأصوات فيها، كيف يحتمل كل هذا الضجيج! ضجيج الأفكار وضجيج القرارات وضجيج اللعنات!!

ستطل 2010 علينا، أسال نفسي عند مشارف انتهاء كل عام، هل في العام المقبل سنعود لسوريا! ويبقى الجواب معلقًا حتى مشارف العام المقبل.

رأيت اللوحة التي علقها جاد على حائط غرفته باللغة الإنكليزية وقد كُتب عليها: (Go to Syria) سألته حينها: "لمَ هذه اللوحة"، "أجاب بعمق: "لأنه لم يتبقَّ الكثير من الوقت"، "أي وقت؟"، "وقت كل شيء يا أمي، هكذا أخبرني ذاك العجوز." نظرت له باستغراب وسألت نفسي: "هل يريد حقًّا أن يعود لسوريا! هل اقترب الوقت! أم لم يتبقَّ الكثير منه!"
التشتت والتعمق وباء سريع الانتشار أعْدَيت جاد به منذ سنوات ليُعْدِيني به الآن، لربما سأعديه به بعد سنوات، وهكذا سنبقى مريضين به حتى النخاع، حتى اللاشفاء.

لن ينتشلنا من هذا المرض سوى ذاك القرار المؤجَّل ذاك القرار المبجَّل. قطع صمتنا صوت مواء (أمل) قطة جاد الصغيرة التي أضافت لحياتنا نكهة جديدة (أضافت الأمل)، وضع لها القليل من التونا في صحن صغير وهزت ذيلها بفرح كدليل على شكره وربَّت على رأسها بحنان.

كان جاد حنونًا بما يكفي لأن يعطف على أضعف الكائنات وأقواها، كان يقول لي: "إن أقوى الكائنات هو أشدها حاجة للعطف والحنان"، أُحبُّ حنانه وأحب إنسانيته العُظمى بينما أخشى على قلبه الرقيق من الخدش؛ كان قلبه كاللؤلؤة شديدة اللمعان وسريعة الخدش، كانت حساسيته مفرطة؛ ليس من رائحة الورد فحسب بل من رائحة الغدر والمجهول، كان يتحسس من المجهول وكأنه يريد استعجال معرفة نهاياته، ومن ثم يعود ليعيش متزنًا داخليًّا، ولذلك كان دومًا عند شرائه رواية جديدة يقرأ نهايتها ومن ثم يقرؤها كاملة بطمأنينة، لا أفهم بعض تصرفاته، ولكنها من أسباب غموضه ورفضه، لم يحسسني يومًا بذنب وجوده بالحياة، ولكن كنت أشعر ذلك من صمته وشروده ونظرات عينيه.

****

جود

تلك المكالمة التي جاءتني من أبي في عصر يوم الثلاثاء استطاعت نقلي لسعادتي القصوى، وخصوصًا بعد معرفتي بأن بيت عمي رامي سيذهبون أيضًا، أي أن ليال ستكون معي برأس العام.

حاولت إخفاء سعادتي بينما كنا نتجهز ليوم الخميس؛ وضعت بيجامتي وطقمي الأسود الذي أحبه وعطري بحقيبة صغيرة، ذهبت واشتريت عطر Nina Rici وإطار صورة مطلية بالذهب وعقدًا رقيقًا معلَّقًا به محبس أنيق ناعم حُفِرت داخله كلمة Loading، تخيلته على رقبة ليال وابتسمت.

لم أستطع النوم ليلة الخميس بانتظار الفجر، وما إن أذن الفجر حتى ارتديت شالًا لكسر سمِّ برد الصباح، وذهبت للمسجد، صليت وطلبت من الله أن يجعل العام القادم أفضل من العام الذي ذهب، كم كنت أشعر بالطمأنينة بين يدي الله، وما أجمل أن يبقى العبد بين يدي ربه خاشعًا مستسلمًا مسلمًا أمره له وحده.

عندما عدت للمنزل كان والدي ينتظرنني، شربنا قهوتنا معًا تمهيدًا ليوم جميل وتوديعًا لعام 2009، عندما أصبحت الساعة الخامسة والنصف ارتديت ملابسي وأنزلت حقيبتي ووضعتها بالسيارة، وقال لي أبي: "بيت رامي سيذهبون معنا بالسيارة." تطايرت من الفرح، ونظر إليَّ والدي مبتسمًا ولم ينطق بحرف وكأنه قرأ تلك اللهفة والفرحة على ملامحي، شعرت بالإحراج قليلًا واحمرَّت وجنتيَّ.

وصلوا بسياراتهم عند السادسة، أدخل عمي رامي وعمي محمد سياراتهم لكراج منزلنا، وانطلقنا بطريق بيروت.

كان صباحًا فيروزيًّا بامتياز، أبي وعمي رامي يتحدثان عن الأمور التي لا تنتهي، وأنا وليال نتحدث قليلًا ونصمت قليلًا لنترك أعيننا تتحدث ولنترك فيروز تتحدث.

وخالتي مريم زوجة عمي رامي كانت تتدخل بأحاديثهم أحيانا بجملة: "ذهبنا لنتنزَّه وليس لنتحدث عن العمل." وأحيانًا تتدخل بحديثنا أنا وليال عندما يغريها الموضوع، سرعان ما وصلنا لبيروت؛ تلك المدينة الراقية، أشعر وكأنها تشبه فتياتها بشدة عندما قلت ذلك بصوت مرتفع: "جميلة هي بيروت كجمال بناتها." نظرت إليَّ ليال بحدَّة جعلتني أصمت بقية الطريق، كم هن مرعبات الفتيات!

كان أبي وعمي أحمد وعمي خليل يحدثان بعضهم تليفونيًّا بين الحين والآخر لكيلا يبتعدوا عن بعضهم. رغم صغر بيروت ولكنها كانت مزدحمة قبل رأس العام، بعد عناء وبحث وجدنا فندقًا على البحر كما كان يريد أبي، دخلنا لغرفنا، كنتُ أنا وأبي بغرفة واحدة، وضعتُ حقيبتي وأرسلت رسالة لليال: "اشتقت إليك."، وبعد قليل

سمعت صوت رنة هاتفي تعلو، نظرت للشاشة رأيت رسالة منها، فتحتها كان مكتوبًا بها: "محتال! ولكن وأنا أيضًا... " كانت بعد كل رسالة ترسلها إليَّ تضع ثلاث نقاط وكأن لكلامها تتمة، وكأن الرسالة لم تنتهِ، كنت أعشق تأمُّل تفاصيلها والغوص بها لذلك كان لا يفوتني أي تفصيل مهما بدا صغيرًا منها.

اتصل عمي خليل بأبي وقال له إنهم ينتظروننا بصالة الطعام لكي نفطر، وبعد الفطور ذهبنا نتمشى في بيروت الساحرة، وبقينا بين شوارعها ومطاعمها حتى المساء وعدنا للفندق لحضور حفلة رأس السنة، كانت نجوى كرم تحيي حفل الليلة، غيرنا ملابسنا، وأخذت ذلك الكيس الأنيق والتقينا، وذهبنا لطاولتنا التي حجزها عمي رامي، كانت ليال فاتنة؛ مرتدية فستانًا أحمر ملوكيًّا، وفوقه (بوليرو) أسود فروًا، وكعبًا أسود عاليًا، تركت شعرها منسدلًا على كتفيها بطريقة عفوية فزادها جمالًا، أبهرتني بجمالها وبأناقتها لدرجة الجنون.

وأثناء صخب الحفل خرجت قليلًا من صالة الاحتفال وأرسلت رسالة لليال: "تعالَي، أنتظرك ببهو الفندق." وبعد قليل أتت إليَّ بأنوثتها الفائقة، " هيا نخرج للبحر قليلًا، سئمت الضجيج." ابتسمت وقالت:

"هيا"، أمسكت يدها وتوسطنا رمال الشاطئ التي ركعت لها؛ لإلهة الجمال.

أعطيتها الكيس وقلت لها "هذا لك، وأتمنى لكِ عامًا جميلًا كجمالك." ابتسمت واحمرَّت خدودها المخملية ومدت يدها، لامست يدها برقَّة وشعرت بكهرباء باردة تسري في جسدينا في تلك اللحظة، ولإخراجها من الخجل الذي خيم عليها "ألن تفتحي الكيس؟"، "بلى" قالتها بصوت يرتجف يعتريه الحب، نظرت لعطرها المفضل ولصورتنا معًا ببرواز مُذهب وأخرجت تلك العلبة الصغيرة، فتحتها بهدوء ونظرت إليَّ بنظرات مفعمة بالحب والخجل، أخرجته من العلبة واقتربت منها وألبستها إياه وهمست بأذنها "أرأيتِ هذا المحبس!" هزت رأسها وهي تمسكه "هذا محبسكِ وسيبقى بعنقك حتى يصبح بيدك." كادت تغيب عن الوعي، ولم تستطع الرد أو الكلام، هي التي لا يضاهيها أحد بالكلام تقف حائرة عاجزة عن الرد. طبعت قبلة على يدها وقلت لها "هيا ندخل لكيلا ينتبه أحد لغيابنا"، "جود!" نظرت لها "شكرًا." أمسكت يدها ولم أرد وبقينا ذاهبين.

عاشـقان نحـن! عاشـقان لحـد الثمـل، لحـد الجنـون، لحـد الانتحـار، مريضان ببعضنا، مريضان بالعشق، مريض أنـا بهـا، ومريضـة هـي بي، وما أجمله من مرض!

عند اقتراب الساعة الثانية عشرة اقتربنا من صحن شموع يتوسـط كـل طاولة، وقيل لنا تمنوا أمنيـاتكم، وعنـد سـماع الجـرس أطفئـوا الشـمع بذات اللحظة.

أغمضـنا أعيننـا وغصـنا بـالتمني، تمنيـت أن تكـون لي ليـال، ولم يكـن لغيرها من أمنياتي نصيب، بقينا على هذا الحـال ونحـن نسـمع 10، 9، 8، 7، 6، 5، 4، 3، 2، 1 ومن ثم صوت جرس ردد صداه بصمتنا.

نفخنا معًا بكل ما أوتينا من قوة وكأنَّ تلك الشـموع سـتحقق أمانينـا، وبدأ الناس بالصراخ، كانت الساعة 12:00 الحد الفاصل بين عامين.

استمر الاحتفال إلى الرابعة، وتوجه كل منـا إلى غرفتـه لينـام أول ليلـة بالعام الجديد، كان صوت الموسيقى والصراخ لا يـزال بـأذني، وشـعرت بإعياء شديد، نظرت لليال بعيون يغلبها النعاس وقلـت لهـا بشـفاهي دون صـوت: أحبـك، واتجهـت لغرفتـي، مـا إن وضـعت رأسي حتـى ذهبت بنوم عميق.

حلمت بليال بتلك الليلة، كنا نقف على يخت يشبه يخت فيلم التايتنك، كانت مرتدية ذلك الخاتم الذي أهديته لها بيدها اليسرى وتنظر إلي بحب، وضعت يدها على بطنها وغمزتني وكأنها تخبرني بأنها حامل، اقتربت منها، وفجأة توقفت عن الحركة وتوقف الزمن، وشاهدت ذات الشخص ينظر إليَّ ويحاول الاقتراب، لأول مرة أراه يقترب، ولكن استيقظت فجأة، نظرت للساعة، كانت الرابعة والنصف صباحًا، التفتُّ لأبي فلم أجده، ولكن بسبب إعيائي الشديد لم أفكر بالأمر وعدت للنوم مجددًا.

كان ذاك اليوم من أجمل الأيام التي مرت بحياتي، وكأنها فاتحة خير لعام جديد.

****

جاد

اتصلت بكريستوف بعدما انتهينا من وجبة الغداء، وبعدما وعدت أمي بتحضير حفلة رأس العام بنفسي، "ألو كريستوف كيف حالك!"، "بخير، وأنت!"، "بخير أيضًا، أريد أن ألتقي بك حالًا."، "فلتأتِ إليَّ، سأكون بانتظارك"، "أوك."

ذهبت بسرعة لمنـزل كريسـتوف الـذي لم يكـن بعيـدًا مـن منزلنـا كثيرًا، وقلت له أريد أن نعـدَّ حفـلًا مميـزًا بنهايـة هـذا العـام ونهايـة كانون الأول حصرًا، اتفقنا أن نـذهب لـتلال الفـاربيوفي ونخـيم هنـاك تلك الليلة ونحتفل تحت السماء حول النار، قال لي: "سيكون الاحتفال مميزًا وخصوصًا بهـذا المكـان." وافقتـه الـرأي وقلـت لـه: سأتصـل بـ (جيوسيبي) صديقي الذي تعرفت عليه بالجامعة، وقـال إنـه سيتصـل بصديقه (دورفيف)، خططنا للرحلة جيـدًا، واسـتأجر كريسـتوف باصًـا صغيرًا لمدة يومين، أخبرت أمـي وخـالتي كـارولين بتجهيـز نفسـيهما في عصر الغد يوم الخميس، وقلت لهما: "ارتـديا جيـدًا، سـنخيِّم خارجًـا." تحمستا للفكرة جدًّا، وفي الطريق بينما كنا كلنا في الباص نغني بصوت واحد، وكان دورفيـف يجيـد العـزف عـلى النـاي وعزفـه رائـع حـزين، وأحضر نايه معه لتلك السهرة، وصلنا إلى مكان مناسب، وضعنا الخيام نحن الأربعة، وكانت قد أتت أم كريستوف أيضًا.

سرعان ما حلَّ الظلام، جمعنا الحطـب وأوقـدناه، وجلسـنا حـول النـار نغني أحيانًا بفرح، ويعزف دورفيف الناي أحيانا ونبكي..

لم يكن من الممكن سماع ذلك اللحن الذي يصدره دون أن تبكي أو تدمع بأقل تقدير، كان يلامس القلوب ويضع الملح على الجروح، قـال

جيوسيبي مازحًا: "لم نأتِ لكي نبكي؛ هذا احتفال." نظرنا لبعضنا فجأة وانفجرنا ضاحكين، كان محقًّا؛ فكلنا كان يبكي، حتى دورفيف الذي اعتاد على صوت الناي كان يبكي وهو يعزف، كان منظرنا مضحكًا بحق. قالت أمي بقيت دقيقة لنفارق 2009 تمنوا بسركم شيئًا قبل ذهاب هذا العام. للحظة لم أعرف ماذا أتمنى، تداخلت الأمنيات في داخلي، وفي نهاية المطاف تمنيت أن أكون سعيدًا، إن كانت سعادتي بسوريا أو بروسيا فليمنحني إياها الرب، وعند الساعة 12 تمامًا تلونت سماء موسكو بالألعاب النارية، كان منظرًا رائعًا ساحرًا. ابتسمت وقلت "أهلًا بكانون الثاني." نظر إليَّ كريستوف وقال: "أهلًا 2010"، سهرنا حتى بزوغ الشمس، كنا نلعب تارة ونغني تارة وتُحدِّثنا خالتي كارولين حكايات مخيفة تارة، كانت تستمتع بإخافة الناس وتشعر بالنصر، تحدثنا عن الأرواح والشر والعالم الثالث، تلاصقنا ببعضنا وهي تتحدث وتصف الأرواح وهم محيطون بنا. قالت لدورفيف: ربما يجلس أحدهم على كتفك. جمد وجهه وثبتت ملامحه وضحكنا فجأة معًا.

شربنا نخب العام الجديد حتى سكرنا، وإن كنت لا أحب الخمر كثيراً، ولكن بداية كانون الثاني كانت مغرية لي بعض الشيء، فبدأت

بكأس وانتهيت بالثمل، لا أتذكَّر متى نمت وأين! كل ما أتذكره ذاك اليوم أنني أمسكت الكأس وشربت النبيذ وتداخلت الأصوات والوجوه، هذا ما أتذكره فعلًا.

يزن

خرجت من الغرفة عندما لم أستطع النوم، وبينما غرق جود بالأحلام نزلت بهدوء إلى بهو الفندق، أخذت نظرة سريعة على وجوه القلة التي تملأ المكان، وخرجت للشاطئ، جلستُ على طرف صخرة أتأمل البحر وأمواجه الشتوية المرتفعة، وفجأة وُضعت يد على كتفي، نظرت بين سواد الليل لأشاهد أحمد وبيده الثانية كأس خمر مدَّه إليَّ. "تفضَّل! رأيتك من شرفة غرفتي تخرج من الفندق، وتبعتك"، نظرت له بطرف عيني اللامعة وقلت له: "شكرًا، لا أشرب."، "أعلم ذلك، ولكن قلت ربما ترغب بالشرب اليوم." وجلس بجانبي وهو ينظر للبحر، واقتحم فضاء تأملي بعد دقائق من الصمت، قلت له بصوت لا يشبه صوتي:

"صاحبك يا صاحبي مُتعب، مُنهك ينزف ألمًا وشوقًا، أحتاج لألينا حاجة عمياء، أتُصدِّق، بعد عقدين من الزمن وبعدما غزا الشيب شعري والتجاعيد وجهي ما زلت أحبها وأحتاج إليها، حاجة لا تشبه

حاجاتي القديمة، أحتاج أن تأتيني نادمة وأن أغفر لها دون مبررات، دون كلمة واحدة، أريد فقط أن تحتويني بذراعيها كطفل صغير منهك من الحياة، لا أريد أن تحدثني عن الماضي ولا أن تنزف أمامي باعتذارها، أريدها صماء، أريد عاطفتها فقط، أريد أن أحيا بها وأن أحيا منها، أن أغوص بها لحد الثمل.

أحتاجها بشدة كحاجة المراهق للحب، أفتقد الحب يا صديقي، أفتقد حالتي تلك قبل عقدين أو قبل 22 سنة، قبل أن يرفضها أبي، قبل أن تخونني مع الغياب، وقبل أن أتضاءل من فارس أسطوري لشبه رجل، قبل أن أموت وأُولد، كبريائي يمنعني من الاعتراف بهذا الكلام كل هذه السنين، وإن كان بين وبين نفسي، ولكن أظن كبريائي ينزف الآن شوقًا لها ولماهيتها، هل تظن أنها ستعود يومًا!

تتملكني رغبة مجنونة بالذهاب لروسيا والبحث عنها وتنفسها واستنشاقها، أريد أن أستنشقها لدرجة سرطان الرئة! أن أراها للعمى، أن أسمعها لحد الطرش، أريد سهرة من سهراتنا تلك! أنا وهي والحب!

عند الساعة الثانية عشرة وعند إغماض أعيننا للتمني، تمنيت وللحظة مجنونة أن أراها في 2010، نظرت حولي خوفًا من أن يكون أحد سمع أمنيتي تلك، أن يكون أحد اقتحم دواخلي ليراها، نظرت لجود مغمضًا

عينيه بشبهه الكبير لألينا، وسألت نفسي: إذا عادت ماذا سأبرر له! يا صديقي، قل لي، ماذا أفعل؟ دُلَّني على الطريق؟"

ابتسم وعيناه تدمعان وقال: "الطريق هو من سيبحث عنك، لا تُقلق نفسك، سيكون كل شيء على ما يرام، صدِّقني." أظن بأنه كذب على نفسه قبل أن يكذب عليَّ بأن كل شيء سيكون على ما يرام، ولكنني كنت بأمسِّ الحاجة لتلك الكذبة، بأمسِّ الحاجة لكلماته تلك، ولو أنه دخل بغيبوبة من الأسئلة بين وبين نفسه، لا أظن أن أحدًا يعلم حبي الحي لألينا إلى هذا اليوم، ولو علموا ذلك لما كانوا أيَّدوني بفكرة إخفاء الحقيقة عن جود.

في تلك الليلة دخلت بغيبوبة بكاء حادة، أبكي وأشهق وكأنني ثملت من خمر لم أتذوقه، وكان أحمد يحدثني ويمسكني وأنا لم أسمع تلك الكلمات، هزني بقوة، نظرت له بعينين منتفختين، قال لي: "إن كان البكاء سيريحك فابكِ ولكن لا تقلقني عليك."

جاء صوت ميادة الحناوي من داخل بهو الفندق:

حبيبي كان هنا، مالي الدنيا عليا، بالحب بالهنا.

حبيبي يا أنا، يا أغلى من عينيا، نسيت مين أنا.

أنا الحب اللي كان.. اللي نسيته أوام..

من قبل الأوان..
نسيت اسمي كمان.. نسيت يا سلام..
على غدر الإنسان..
والله زمان، يا هوى زمان.. والله زمان، يا هوى زمان..

احتدَّ بكائي مع كلمات ميادة حتى أشرقت شمس 2010 لأستقبلها بدموع وجروح قديمة ظننت أنها شُفيت من سنوات، وعدت إلى صفحة (المقدمة) بينما ظننتُ نفسي تجاوزت تلك المقدمة، وكأن ريحًا قوية بعثرت الأوراق لأصبح سجين (المقدمة)، نمتُ ذاك اليوم كما لم أنم من قبل، وكأنني أشاهد الوسادة والسرير لأول مرة بحياتي.

وكأنني اقتحمت ذاك الحاجز - الحاجز الذي يفصل الماضي والحاضر- لأول مرة كنتُ أهذي كطفل صغير فقد أمه، كطير حزين فقد جناحه، فقد ريشه يئنُّ بحزن وصمت يشبه صمت الحزن المحيط بنا.. صمت البحر وصمت الأشجار وصمت الموسيقى وصمت الموت!

****

2010 م

ألينا

"ماذا تمنيتِ بآخر لحظة بـ 2009؟" سألتني كارولين، نظرت لها حائرة، هل أخبرها حقًّا ما تمنيت! أم أكذب عليها بأمنية ثانية! نظرت لعينيها وهي منتظرة ما سأقول. قلت لها بصوت هامس: "أن تطوي معها خيباتي وأوجاعي." وأكملت بسرِّي "وأن أعود لدمشق بهذا العام." ابتسمت ابتسامة شاحبة وأكملت "وأنتِ؟" نظرتْ لآخر نقطة تصل إليها عينيها وتنهدت، وما بين تنهيدتين الأولى تنهيدة حسرة مرت على أربع عقود مضت ونثرت غبارها، والثانية تنهيدة خوف ربما لأربع عقود أيضًا ستأتي، قالت: "ألَّا أموت وحيدة." خفضت رأسها بحزن لا يشبهها، بصمت لا يشبه ثرثرتها وفوضويتها، تأكدت حينها أن أكثر الناس ضجيجًا هم أكثرهم ألمًا وفراغًا، وإن الإنسان الذي يجيد الضحك كثيرًا هو ذات الإنسان الذي ينزف من الداخل لسبب أو لأسباب مزقت دواخله لدرجة اللامبالاة المصطنعة، لدرجة الضحك الهستيري، لدرجة الثرثرة. لأول مرة أشاهد ذاك الجانب بكارولين رغم صداقتنا الطويلة. لكل إنسان دواخل مظلمة كالليل ومخيفة كالمحيط، قد لا يسمح لأحد باقتحامها يومًا لتُدفن معه ولتُدفن به وليُدفن بها،

قلت لكارولين لإخراجها من تلك الحالة: "ما رأيك أن نتسوق قليلًا؟"، ابتسمت "فكرة لطيفة، أريد أن أبتاع بعض الملابس"، "فلننطلق."

كنتُ أعلم جيدًا بأن مزاج الأنثى لن يغيره إلا الغوص بالأسواق والغياب عن العالم بساعات تسوق أنثوية؛ فالأنثى عندما تذهب للسوق تموت وتولد من جديد.

أرسلت رسالة لجاد كتبت بها: "جاد، ذهبت برفقة كارولين للسوق. الطعام في المطبخ، لا تنتظرني على الغذاء." وخرجنا وكأن كلتينا بحاجة للاختفاء بالسوق، سألني مرة جاد عندما كنا نتسوق معًا: "ألا تتعبين من الدخول إلى كل هذه المحلات!" ابتسمت ولم أُجِبه؛ فهو لا يعلم بأن تعب أجسادنا بين المحلات يريح نفسياتنا؛ لذلك نقسو على أنفسنا حتى نرتمي منهَكين متعَبين ما إن نعود إلى المنزل وكأننا غبنا عنه شهورًا.

****

ليال

محظوظة أنا بالحب وغارقة به لقاعه، غارقة به حتى البلل، بمحيطات العشق العذبة المالحة - المالحة العذبة، أستنشق الأكسجين

منـه، وأستنشـق الحيـاة منـه، ينقلنـي إلى سـماء الحـب، ويرمينـي بمحيطات العشق، هو الذي لا يجيد الخبث ولا يدرس كلماته ولا حتى يختار غزله.

أعشق عفويته بالكلام، وعندما يرفع أحد حاجبيه إذا لم يعجبه قول ما، وعندما يحك جبينه إن كان مستغرقًا بالتفكير، وعندما يضرب أصابعه على الطاولة بإيقاع يراقص قلبي إن كان متوترًا، وعندما يحمر وجهه خجلًا أو تحمر أذناه غضبًا أو يكزُّ على أسنانه إذا وصفته بأنه لا يعرف شيئًا، أو عندما يحك أسفل رأسه إذا غازلته.

ذائبة أنا بتفاصيله حتى الانحلال، حتى الانفكاك، حتى التبخر، ذائبة بزرقة عينيه، برجفة يديه، ببحة صوته عندما يخجل أو يغازلني برقَّة، كنت ممسكة ذاك المحبس المعلق على رقبتي، أنظر إليه بعيون عاشقة. عندما رنَّ هاتفي تلك النغمة الخاصة بجود، نغمته المميزة Sway.

"أهلًا جود" مع موسيقى دقات قلبي التي سبقت كلامي، "كيف حالك لوليتا؟" كان دائمًا يغازلني بلوليتا أو صغيرتي أو سنفورتي، وكنت سعيدة بكل شيء منه، "بخير الحمد الله، وأنت؟"، "بأفضل حال، ماذا

تفعلين!"، "لا شيء، كنت أقرأ رواية، وأنت!"، "قولي للرواية بأن جود يستأذن منكِ لوليتا لبضع الساعات، وارتدي ملابسك، بعد ساعة سأكون أمام بيتك." ضحكتُ بخجل وقلت له: "حسنًا، بانتظارك أنا." وأغلق السماعة وقلبي يكاد يطير من مكانه، أردت أن أسأله: "إلى أين سنذهب؟" ولكنه لا يحب هذا السؤال، ودوما يجيبني: "لا تستبقي القدر يا صغيرة."

ارتديتُ ملابسي وتجهزت، وبين الحين والآخر أنظر لهاتفي بانتظار مكالمته، خرجت من غرفتي، كان أبي يقرأ الجريدة بينما أمي تشاهد التلفاز بصمت. قلت: "سأذهب مع جود"، نظر إليَّ والدي من فوق النظارة وقال: "وماذا عن دراستك؟"، خفضت رأسي: "ولكن اليوم الخميس." قالت أمي لأبي: "دعها تذهب، وعندما تعود تعوض، أليس كذلك ليال؟"، أومأتُ برأسي بسرعة: "بالطبع"، عاود النظر للجريدة وقال: "لا تتأخرا، وأبلغيه سلامي"، "حسنًا"، رنَّ هاتفي بتلك اللحظة، وبينما كنتُ أجيب أومأت برأسي لوالديَّ بالخروج، "أهلًا جود"، "أنا بالخارج"، ابتسمت لجملته المعتادة عندما يكون في الخارج وعندما أجيبه بثقل مصطنع وكأنني لم أنتبه لمجيئه.

كان يقف مستندًا على سيارته ينتظر مجيئي خافضًا رأسه غائبًا بأفكاره حاضرًا بشموخه، سبقتني رائحة عطري فالتفتَ إليَّ، مدَّ يده ليصافحني، وقبَّل يدي بأناقة تشبه أناقته، وقال: "أهلًا بأميرتي"، وابتسم تلك الابتسامة التي أوقعتني بحبه منذ سنين، "أهلًا بك جود"، فتَح لي الباب كعادته وأغلقه برقَّة وركب وهو يصفِّر بهدوء. كان يبدو سعيدًا، سألته: "تبدو سعيدًا اليوم! ما الأمر؟"، نظر إليَّ بطرف عينه وقال: "لوليتا معي وتريدينني ألَّا أكون سعيدً؟!" وابتسم وأكمل: "سنفورتي بجواري وتسألين كيف حالي؟!" وبقي يدندن وأنا أضحك عليه حتى وصلنا لسينما دمشق، قال لي: "اليوم يوجد فيلم رعب رهيب انتظرته منذ شهور"، نظرت له بحدَّة "ويوجد فيلم رومانسي أيضًا"، "ولكن سنشاهد الرعب بالتأكيد"، "تقصد الرومانسي بالتأكيد"، "لا، أقصد الرعب"، "عندي فكرة!" نظر إلي مستغربًا، أكملت بسذاجة مصطنعة: "أنت تشاهد فيلم الرعب وأنا أشاهد الفيلم الرومانسي"، أطال النظر إليَّ ورفع يده وضربني على رأسي ضربة خفيفة "أريد أن أفهم ماذا يوجد هنا! تنكة!" ضحكت وهو يشير إلى رأسي، وأكمل كلامه: "وقارئة نهمة للكتب"، وضحك، قلت له بغيظ: "تنكة! مصطلحاتك رجعية"، نظر إليَّ ولم ينبس ببنت شفة.

اشترى البوشار والعصير، وقطع تذكرتين لفيلم الرعب، ودخلنا وهو ممسك بيدي بقوة ويقول: "لا تخافي، لن تأكلك الأشباح"، ضحكت بسخرية عليه، وقبل أن يبدأ الفيلم كان قد أنهى البوشار والعصير ونظر إلى البوشار بين يديَّ، وضعت يدي وقلت: "لن تقترب منه " وعندما بدأ الفيلم أعطيته البوشار والعصير وأمسكت يده بكلتا يديّ بقوة، وكنت أخبِّئ وجهي بمعطفه بين الحين والآخر، وهو يضحك عليَّ تارة ويندمج مع الفيلم وينساني تارة أخرى.

عند انتهاء الفيلم اقترب مني وأنا ممسكة بذراعه وهمس بأذني: "أحبك عندما تحتمين بي." سَرَت كهرباء من أذني لباقي جسدي، كهرباء كادت تُفقدني الوعي ونقلتني من صالة السينما إلى مدينة الزمرد: أنا وجود فقط وشجيرات وردية على شكل قلب تحيط بنا، وعصافير بنفسجية تمطر علينا أوراق ورد جوري أحمر وأوراق ليلك بنفسجي، وشلال من النبيذ الأزرق يتصاعد أمام عينينا وكأننا بجنة الحب. وعندما وصلنا لباب المنزل أمسك يدي وكتب بأصبعه على كف يدي: "أحبكِ." وقبَّلها وقال لي: "لا أرغب أن نفترق ولو للحظة، أريدك للأبد." ابتسمتُ وقلت: "وأنا أيضًا، ولكن يجب أن أدخل الآن، وأنت يجب أن تذهب تدرس." أومأ برأسه كطفل صغير فُرض عليه

أمر، فتحت باب السيارة وقلت له: "أحبك." حكَّ أسفل رأسه واحمرَّ وجهه وبقي ينظر إليَّ حتى صعدت لغرفتي وفتحت نافذتي ولوحت له بيدي، وبقي ينظر إليَّ دقائق قبل أن يذهب ويتركني أذوب به وبعشقه وبذكرياته وبتفاصيله.

****

أحمد

مُنذ ذاك اليوم الذي فتح لي قلبه يزن أصبح عندما تضيق به الدنيا يتصل بي لنذهب لأي مكان نتحدث به، أو بالأصح يتحدث به وأستمع إليه بإنصات وبحزن كبير على حاله الذي طالما كابر وكابر، ولكن ها هو الآن يقع حائرًا بين رجُلين وبين امرأتين.

قال لي ذات يوم: "أسيرٌ أنا يا صديقي بين امرأتين.. سجينٌ بينهما وبين ذكراهما، لست إلا بقايا رجل يقف بين امرأة وبين امرأة؛ امرأة أحببتها يومًا وخانتني مع الغياب، وامرأة أحببتها أيضًا وخانتني مع الموت." دمعت عيناه وهو يرفع فنجان القهوة المرة لفمه، وأكمل: "ستختلط دموعي بمرارة القهوة، سأخون كبريائي، وسأخون السكر، عاشق الخائنات لا بد أن يخون، أن يثمل من خمر دموعه، أن يحدث

نفسه كالمجنون." نظر إليَّ ببقايا خيبة وبقايا حنين "أيُعقل أن تُسجن في قلبي امرأتان! أو أيُعقل أن أُسجن أنا بين امرأتين!"

لم أكن لأفهم حالته تلك، ولم أكن أواسيه سوى بالاستماع، أراه وهو يتعرى من كبريائه ويقف أمامي بذاكرة مؤثثة جيدًا وراقية جدًّا، يبدأ يعرضها عليَّ ويدور كدرويش متصوف بأفكاره وبأحزانه، يدور ويدور وكأنه يرقص رقصة سما وهو ثابت على ذات الكرسي، ولكن في دواخله يدور يد للسماء (ألينا) والثانية للأرض (دانيا)، وبينهما يصاب بدوار ويُغمى ويفقد الوعي لينتقل بهن إلى اللاوعي، يحدثني كأنه يحدِّث نفسه، وكأن وجودي وعدمه واحد، كان يحتاجني ليبدأ، وما إن يبدأ يختلي بنفسه وبهن، يختلي بذاكرته وبلوحاته التي رُسمت بريشة القدر، يقف أمام كل لوحة، يُطيل النظر ويطيل الوجع، يخفض عينه على زاوية اللوحة ليرى توقيع القدر، وتواريخ، تواريخ، تواريخ، كلها حُفرت داخله، حُفرت بذاكرته، لم ولن ينساها، كان يقف على بقايا زجاج، ربما كان بقايا كبرياء تحطَّم، يقف حافيًا لا يتألم ولا يصرخ وكأن كُتم صوته، يدور فوق الزجاج وينزف، لون الدماء القاتم ولون الزجاج الأسود يرسمان لوحة جديدة بألم جديد وبمسمى جديد، ربما هذه المرة يسميها (لوحة سما) وبذات التوقيع المرير الذي

يستخدمه القدر دومًا، بعشوائية مؤلمة وبخط غليظ أسود وثلاث نقاط ينهي فيها القدر توقيه ليجعله أسيرًا بين النقاط، ثلاثة قرون ربما، ليضيف تلك اللوحة إلى بهو ذاكرته الراقية.

كان في كل مرة يتجرد ويُصلب ويدور ويعلِّق لوحة جديدة من لوحات خيباته ويُمسك السيجار، ينفث بتأنٍّ، ويرتدي معطفه البني الطويل ويقف وكأنه رجل ثانٍ غير ذاك الذي نزف ألمًا منذ قليل، بشموخ معتاد وبصوت أخشن وببحة إضافية، ويمشي وكأنه دفن ذاك الرجل تحت الطاولة أو تحت كرسيه، أو ربما ترك لي مهمة دفنه ولكن تخلَّص منه ومشى، ليعود بعد أيام أو ربما بعد شهور، يحفر القبر ليخرج ذاك الرجل ويتقمصه من جديد، وأكون أنا الشاهد الوحيد لكل تلك الجرائم ولكل ما يحدث، أرى، أستمع، وربما أتألم وأبكي وليس إلا.

****

جاد

شمس أيار تُطلُّ لتخبرنا بقدوم الصيف، موسم جديد بطقوس جديدة، كان كل موسم وكل فصل يحمل معه طقوسه الخاصة

وتعويذاته وشيئًا من اللعنات والتهاني، لحظة يلعن ولحظة يهنئ ويُنعم.

أكره تقلُّب الفصول والمواسم، لم أتهيأ لتغييرات جديدة، ولكن قطار الحياة لا ينتظرنا أن نودع من نحب، وربما نودع أنفسنا ويطيل الانتظار، من لم يركب القطار سريعًا فاته، وهذا ما كنت أخافه، كنت أركب القطار حافيًا وأحيانا عاريًا، دون حقائب ولا صور تذكارية، دون صليب ولا قرآن ألجأ إليهم في ضيقي، دوني أنا.

ذات صباح في أيار كنت أقف عند نافذة الصالة أنظر إلى موسكو بتعمق، تلك المدينة التي نهارها هادئ وليلها صاخب، تلك المدينة التي تسحر من يراها بجاذبية وبتناقض، المدينة البيضاء والسوداء في الوقت ذاته. اقتربت مني أمي وقالت: "حان الوقت لنعود، القرار أصبح ملك يدك الآن، فكِّر جيدًا وأنا بانتظار رأيك." قالت هذه الجملة بنفَس واحد دون أن ألتفت إليها، وكأنها خافت أن تتراجع ولو للحظة وتركتني حائرًا خائفًا، ألست أنا الذي يخاف تقلُّب الفصول! فكيف لي بتقلُّب القارات والوجوه!

خرجت من المنزل أمشط الشوارع حيرةً، ربما كنت أودِّعها بشكل أو بآخر! أو كنت أرجو منها التمسك بي، كيف تتمسك بي وأنا الذي أصف نفسي دومًا فيها كضيف!

وللحظات أتمنى لو أني خُلقت قطعة نقود ورقية، أتكون في تلك الآلات الحديدية الضخمة، وليس بعد ممارسة جنسية بين رجلٍ وامرأة لا يُفكران سوى بمتعتهم آنذاك، ماذا لو كنت تلك الورقة المستطيلة التي يحبها الجميع ويتخلى عنها الجميع، لا أملك قرارًا، أين سأذهب، وفي أي جيب سأُدس... سأُدفع مقابل ماذا؟ لا يهمني كثيراً

سأمرُّ على الغني مرور الكرام، وعلى الفقير سأشعر بفرحته والاهتمام، لن أُفنى، وبذات الوقت لن أُخلَّد، ربما ستكون نهايتي بأنني سأُمزق، أو ربما في قطعة أثاث لتلك العجوز التي تخاف أن يرثها أبناؤها الذين تخلَّوا عنها، أو أُدفن مع ميت ذي ديانة غريبة تعود معتقداته لأيام الجاهلية بأن الميت سيحيى ويتنعم بالأموال التي تُدفن معه. لو كنت تلك القطعة لكانت حياتي أسهل وربما أجمل، رغم رائحة العرق وضيق الجيوب أحيانًا، ولكنني لن أتذمَّر أو أقف حائرًا أمام أي خيار وأندم في نهاية المطاف.

أخذتني الريح إلى الكنيسة، دخلت بهدوء أتأمَّل تماثيل مريم العذراء بأحجام مختلفة، والصليب الذهبي الكبير والثاني الفضي- وآخرين بأشكال وأحجار شتى. كان يقف رجل عجوز، اقتربت وكلِّي حيرة، رِجل تدفعني لأتقدَّم وأخرى لأتراجع، وفي النهاية اقتربت ورسمت صليبًا أمام وجهي وأشعلت شمعة، وطلبت من الرب أن يقف معي ويساعدني وألا يتخلى عني، شعرت بطمأنينة وكأنني تركت نصف حملي هناك، وخرجت واتجهت إلى ما بين الجبال، المكان الذي أغيب فيه من نفسي، وقفت أحاول التذكر قليلًا، وإذا بي أصلِّي كما علمني الأستاذ خالد منذ سنوات، لا أعلم إن كانت صلاتي صحيحة أم لا! ولكن كنت بحاجة لخلوة مع الله لأطلب منه ما شئت، وعندما انتهيت شعرت وكأنني أصبحت خفيفًا بلا حمل وبلا هموم، وكأنَّ الله قد استجاب دعائي فورًا.

وعندما جاء الليل وغابت الشمس وهي تحمل هموم وآلام يوم بأكمله كنت في طريق البيت، أتأمل كل شيء وكأنني فجأة أصبحت أراه ولأول مرة، تلك الأشجار المتدلية من أسوار الحدائق، وتلك الحجارة التي تقف جانبًا، وتلك النجوم المتناثرة بالسماء بطريقة عشوائية جميلة، تُضاء واحدة وتنطفئ ثانية، ربما هذا من قوانين

الطبيعة، يموت شيء ليولد مكانه شيء آخر، وتبقى الطبيعة متَّزنة لا تأبه بموت أحد، طالما يولد البديل فورًا.

دخلت المنزل، وجدت أمي تنتظرني على طاولة الطعام، "مساء الخير أمي" ابتسمتْ بكبرياء "مساء الخير جاد"، قلت لها مداعبًا: "ما بك شاحبة، أين ملامح السفر!" توسعت عيناها وهي تنظر إليَّ لا تستطيع أن تفرق إن كنت مازحًا أم جادًّا، قلت لها لأثير حيرتها أيضًا: "ألم تحجزي التذاكر إلى الآن!" وقفت ملامحها فجأة وكأنها شُلَّت وقالت بشيء من عدم التصديق: "أي تذاكر! وأي سفر!"، "أوافق على ما قلتِه لي صباح اليوم؛ فقد حان الوقت."

خليط من مشاعر سيطر علينا في تلك الليلة.. فرح، حيرة، حزن، خوف، ترقُّب، وأكثر من هذا بكثير.

وبدأ بعد ذلك التحضير للسفر، وكانت مرحلة رمادية صامتة لا تحمل أي مشاعر أو أحداث سوى روتينيات وتخبط!

سحب أوراق الجامعة وتصديقها وترجمتها، وحجز تذاكر الطيران، وتوضيب الحقائب وتوضيب المشاعر، ومحاولات لجمع الأعصاب المتناثرة، ودموع كارولين ودموع موسكو، ولوحة وداع صامتة رمادية

بحتة، موسكو التي لم تكن يومًا إلا بيضاء أو سوداء ها هي اليوم رمادية شاحبة كرمادية الوجوه والأزهار، كرمادية (أمل) وموائها الحزين، كرمادية ناي دورفيف ورائحة كريستوف، كرمادية الذكريات!

****

جود

السماء عندما تمطر لا تكتفي بقطرات مطر قليلة وسرعان ما تتوقف، ينغمر الماء من بين السحاب متدفقًا يبلل الأرض والناس والزرع ويكاد يقتلع ويُغرق ويفيض.

ماذا لو كانت هذه السماء - سماء السعادة أو سماء الأحزان - سخية كريمة، تتلاحق القطرات بغزارة وتتلاحق الأخبار بسعادة لتغمر قلبنا بفرحٍ مُطلق أو حزنٍ مُطلق، ليبتلَّ قلبنا، وإما يتراقص طربًا أو يتراقص ألمًا، وبكلتا الحالتين السماء سخية، سخية لحد الدمع.

أنهت ليال الصفَّ الحادي عشر بتفوق كبير، بينما أنهيت السنة الثانية من الجامعة وبدأت عطلتنا الصيفية، وبدأت أحلامنا تكبر وتزهو، ففي كل صيف كنا ننضج أكثر ونعشق بعضنا أكثر، ففي الصيف يكبر الحب أو ينعدم، وعند مجيء موسم الشتاء إما أن يهنئ

العشاق الذي راهنوا على حبهم وازداد بالصيف، وإما أن يكون سباتًا لخيبات صيفية قاسية ومحاولة لتضميد الجروح، ولكن حبنا كان يأخذ الوتيرة الأولى؛ ففي كل يوم يزداد ويكبر، وفي كل صيف يتضاعف ويرفع سقفه، لم يكن لحبنا سقف ثابت يصل إليه ويكتفي عنده، بل كان بكل صيف يرفعه ويزيد حدود الحب.

بينما كان والدي منهمكًا بمتابعة الأخبار بحواسه كاملة، وبينما كنت جالسًا بجواره غارقًا بالتفكير، قلت له: "أبي، أريد أن أحدثك بموضوع مهم"، نظر إليَّ وأطفأ التلفاز؛ مما زاد من توتري، "تفضَّل جود، إنني أستمع." حاولت تجميع الجمل التي رتبتها بعقلي لأيام وبدأت: "أبي، أنت تعلم أنني كبرت." هز رأسه بينما سكتّ قليلًا، نظراته تحثُّني على الاستمرار " أقصد أنت تثق دومًا بقراراتي، أليس كذلك؟"، "بالطبع يا جود، ماذا هناك؟ تحدَّث" وبلحظة تهور بنظره قلت ودفعة واحدة: "أريد أن أخطب." وتنهدتُ بعدها وكأنني أحمل جبلًا منذ أيام وأنزلته، "ولكنك ما زلت بالعشرين يا جود!" نظرت له وشعرت بخيبة ولكن حاولت الإصرار "ولكن يا أبي أخطب الآن وأتزوج بعد سنة، والأعمار لا تقاس بالسنين، أليس كذلك؟" سرح قليلًا وكأنه يفكر بما أقول وأضاف: "ولكن دراستك!" قاطعته بسرعة وكأنني

درست هذا الجواب جيدًا: "هذا القرار لن يؤثر على دراستي؛ فالخطوبة ليست إلا مرحلة رسمية وجادَّة للحب، وأنا أحب منذ سنوات، ولم يؤثِّر الحب على دراستي." نظر إليَّ، وحاولت الاتزان وإظهار ملامح الجدية. "وهي ما رأيها؟" سألني دون التطرق لاسمها كما فعلت تمامًا، وكأنه لا يعرفها، أجبت بإجابة مدروسة أيضًا وبثقة: "بالطبع لم أفاتحها بالموضوع قبل أن أفاتح أبي به." كنت بهذه الجملة قد كسبتُ رضا أبي الكامل، وابتسم لي وقال بشيء من الفخر: "كبرتَ يا صغيري وستكوِّن عائلة!" خفضت رأسي بفرح وكأنه قد أعلن موافقته، وأخيرًا قلت بصوت خجول: "متى ستحدِّث والدها؟" قال بشيء من السخرية: "أنا أعرف والدها؟" وابتسم، احمرَّ وجهي وقلت: "نعم؛ فهو عمي رامي." ضحك بصوت عالٍ وقال: "ليال إذًا من سرقت قلب ابني جود!" هززت رأسي بخجل الطفل الصغير الذي مهما كبُر يشعر بشيء من الطفولة أمام والديه، شيء من البراءة، قال أبي: "ولكن الزواج يا ولدي ليس لعبة. فكرت بالأمر جيدًا؟" وكأنه يريد أن يشير إلى موضوع الأديان، ولكنني كنت مصرًّا. "بالطبع أبي؛ الزواج مسؤوليات وحياة، وأنا لا أرى حياتي إلا مع ليال." ابتسم وقال: "سأخبر رامي بالأمر قريبًا." قبَّلت يده وربَّت على رأسي باعتزاز، وفخر وانطلقت لغرفتي وأنا أفكر كيف سأفاتح ليال بالأمر، وكيف سأعرض

عليها الزواج. لطالما كانت فتاة استثنائية، ولطالما كان حبنا استثنائيًا، فلن يكن يوم طلبي لها بالزواج إلا استثنائيًا أيضًا مُفعمًا بالتفاصيل الصغيرة؛ لذلك كان الموضوع صعبًا بعض الشيء ولكنه مغرٍ جدًّا.

كنت ككاتب يبحث عما يفتتح به روايته الأولى، يكتب ويمزق، وتتناثر الأوراق وبقايا الأفكار بغرفته بينما يبقى حائرًا أمام فوضى الأفكار برأسه بحاجة لترتيب وتنسيق وأناقة، كرسامٍ يقف أمام لوحة بيضاء لا يجرؤ على وضع نقطة لون على الورقة، وما إن يضعها حتى يبدأ بالرسم بعفوية وقوة جبارة تحوِّل الورقة تلك إلى لوحة تحمل معاني كثيرة.

****

ليال

منذ أيام وجود منشغل بالحفل التي تعدُّه جامعته لهذا العام والذي كان سيختمه جود عزفًا على البيانو، كان متوترًا وخائفًا ومتحمسًا، لم ينم البارحة وهو يتدرب على العزف ويتصل بي بين الحين والآخر ليُسمعني ما سيعزفه ويأخذ رأيي، رغم مهارته الفطرية بالعزف ولكنه كان خائفًا، وكنت أقول له: "أتحدى عازفًا بسوريا يعزف كما تعزف." كان يتنهد قليلًا وكأنه طفل صغير مدحته وارتاح.

اليوم الحفل، وأعصاب جود مشدودة يحاول الاتزان، يتصل بي بين الحين والآخر، يتحدث بكلمات غير مترابطة وينهي المكالمة، قال لي آخر مكالمة: "سأتجهز وأذهب للبروفا الأخيرة." تنهَّد بثقل وأكمل "لا تتأخروا كثيرًا."

وقفت أمام ملابسي حائرة، رميت الفساتين على السرير وبدأت أرفع واحدًا تلو الآخر، واعتمدت في النهاية على فستان أبيض طويل، وضعت القليل من الماكياج الهادئ الربيعي، ولبست كعبًا وحلق كريستال طويلًا، رفعت شعري وانسدلت بعض الخصلات على وجهي، نظرت لنفسي بالمرآة دقيقتين وأنا أتأمل تفصيلًا تفصيلًا، كان المحبس المعلَّق على العقد يلمع برقبتي مع لمعان الحلق.

سمعت صوت أبي يناديني لنذهب، تنفست بصعوبة، وذهبنا وأنا أفكر بجود وتوتره وكيف له أن يعزف أمام المئات من الأشخاص، وصلنا للجامعة ولم تكن قد ازدحمت بعدُ. دخلنا إلى المسرح وجلسنا بانتظار بدء الحفل، وكان عمي يزن موجودًا، وبعد قليل وصل كلٌّ من عمي خليل وأحمد ومحمد. وبدأ الحفل بكلمة من عميد الجامعة، وبعدها مسرحية صامتة رائعة، لوحة درامية سوداء توصل رسالة وهدفًا دون كلام، كانت فكرتها جميلة جدًّا، أبهرت كل الموجودين،

واستمر الحفل في لوحات رائعة وتصفيق حار تارة وخيبات تارة أخرى، وبنهاية الحفل تقدَّمت الفتاة التي تُقدِّم اللوحات وقالت: "والآن جاء وقت الموسيقى الكلاسيكية والعزف على البيانو مع الطالب جود...." توقفت دقات قلبي لثوانٍ وبدأ التوتر يظهر علينا، بينما رفع الستار وظهر جود جالسًا وراء البيانو مرتديًا بذلة سوداء وربطة عنق سوداء، كان أنيقًا وسيمًا وكأن اللون الأسود يزيد الإنسان رونقًا وأناقة، وكما قال مصمم أزياء شهير بالقرن العشرين عن اللون الأسود: "إنه لون يضع حاجزًا بيني وبين الآخرين."

كان قد صفف شعره بعفوية زادت من جماله وزاد من جمالها، ابتسم للحاضرين ابتسامة خجولة بنشوة وبدأ بالعزف، وبدأت أصابعه تنقل الحاضرين إلى عالمٍ ثانٍ بتنقلات مدروسة أنيقة، أخذ يعزف كما لم يعزف من قبل، وكأنه أمام البحر لا أحد على الشاطئ سواه، مغمضًا عينيه ومندمجًا لحد الغياب، لحد الإبداع، وبعد دقائق من العزف المستمر والإحساس العالي انتهى من العزف، وفتح عينيه لأول مرة منذ دقائق، حتى تعالت الصيحات والتصفيق الحار، وقفت له وتفاجأت بكل الحضور واقفين منبهرين يصفقون له بقوة، اقترب

من المايكروفون التي تُقدِّم منه تلك الفتاة اللوحات والفقرات الفنية وقال:

"شكرًا لكم جميعًا"، وخفض رأسه شكرًا، وأكمل: "أولًا أحب أن أشكر لكم حضوركم وتفاعلكم، وأحب أن أنتهز الفرصة بهذا اليوم وبهذا الحشد الكبير وأقول شيئًا." سكت قليلًا مبتسمًا والناس ينتظرون بدهشة ما سيقول، وكنت أكثرهم دهشة، وخصوصًا عندما سمعت اسمي: "ليال! أتقبلين أن تكوني زوجتي؟" وكان نظره إليَّ، لم أصدِّق ما سمعته، وكأنني أحلم، شعرت نفسي وكأنني سأفقد الوعي من العيون التي تنظر إليَّ بدهشة. "ليال، أنا أحبك." قالها جود وكأنه أراد إحراجي أكثر، لم أتمالك نفسي وبكيت، كانت دموعي تنهمر على وجهي بحب وخجل ولهفة، لم أتوقَّع بيومٍ أن أوضع بموقف كهذا، ولكن رغم خجلي الشديد كنت سعيدة به، كدت أطير من فرحتي كطائر حب، أتجه إليه أقول له: "وأنا أيضًا" وأعود. تمنيت أن أحتضنه وأختبئ بحضنه من النظرات التي ترمقني من كل مكان، ثوانٍ وكأنها أعوام. هززت رأسي لجود ليتوقف عن الكلام، "والآن هذه المقطوعة إهداء إلى ليال." وعاد خلف البيانو يعزف المقطوعة التي أحبها مقطوعة spring waltz لشوبان، وعينه تدمع، وأنا غارقة به، انتهى وسمعت التصفيق الحار ذاته، أما أنا فلم أستطع حتى تحريك يدي،

أنهك الحب قواي وجردني حتى من الحركة، رأيت جود ينزل من المسرح ويتجه إليَّ وقف أمامي وأمسك العقد، فتح قفله وأزال المحبس من العقد وألبسه لي، وأخرج من جيبه علبة صغيرة بها محبسه، نظرت لأبي وأمي، ابتسما لي وهزَّا رأسيهما بالموافقة، وألبسته المحبس، ورفع يدي وقبَّلها أمام المئات هذه المرة، وهمس بأذني: "تعالي معي." وسحبني من يدي وركضنا بلا وعي وكأنه اختطفني إليه، ركبنا بالسيارة ومشى، لم أستطع حتى الكلام، أما هو فقد كان قد ثمل بالحب، سكارى كنا، شربنا من خمر الحب حتى ثملنا، حتى غبنا عن الوعي، نمشي ونحن نتمايل، نهمس لبعضنا بكلام غير مفهوم ونضحك، يقبِّل يدي ويتنفسها.

أتنفس عطره وأتنفس الحياة منه، أخذني لمطعم كلاسيكي راقٍ، وحجز لنا طاولة منفردة، كانت عازفة الكمان تقف بجوارنا وتعزف بهدوء والورد الأحمر على الطاولة متناثر برقة، "أحبك" قلتها وأنا أنظر لعيون جود، وقف كل شيء لثوانٍ عدا نظراتنا، حتى عيوننا توقفت عن الرمش وكأنها تحيى من الحب، أمسك يدي وقال لي: "أريدك للأبد، أحبك لوليتا"، كل شيء مميز وكأنني بطلة لمسلسل رومانسي- قديم، وكأنني أحلم.. الحب جامح، يتدفق بقوة كالوجع تمامًا، سهرنا

معًا على صوت الكمان وصوت الحب، احتفلنا على طريقتنا، كان كل شيء مبهرًا؛ الوجبات والكؤوس التي امتلأت بالعصير وهمسات الحب والغزل المسروق ودقات قلبينا والمحابس التي زينت حياتنا. قال لي جود بهمس: "بالرغم من حبي لكلمة حبيبتي ولكن خطيبتي أشهى." أمسك حبة فراولة وقرَّبها من فمي، قضمت منها قضمة: "زدتِها جمالًا وكأنك أنتِ مَن لوَّنها بالأحمر." احمر وجهي خجلًا كلون الفراولة وكَلَون الحب، كنت أكتفي بالخجل أمام كلام جود الساحر والمبهر، أما هو فكان يتلذذ بخجلي وصمتي ليزيد من كلماته تلك ذوات الإيقاع على قلبي. خرجنا من المطعم، ونحن ذاهبين شاهدت حديقة صرخت: "توقَّف" توقَّف جود دون أن يفهم شيئًا "ماذا هناك!"، "أوقف السيارة هنا قليلًا."

نزلنا من السيارة، أمسكت بيده بقوة وسحبته إلى المراجيح، نظر إليَّ باستغراب، وسرعان ما تحوَّل استغرابه لضحك، دخلنا بهستيريا ضحك، وركبت على المرجوحة، وبدأ يدفعني بقوة ونحن نضحك، وركب على الثانية وبدأنا نتأرجح، كنا نتأرجح بالحب، نذهب لأقصاه ونعود، مُنَيَّمين مُسَيَّرين دون مقاومة، بين مد وجزر.. ولكن كنا سعيدين.

وهل للسكارى الاعتراض على أوامر الحب؟!

حملني إلى السيارة، وذهب بسرعة إلى قاسيون، أوقف سيارته بأعلى الجبل ونزلنا، وصرخ بعالي صوته: "أحبك." ودخلنا لمقهى بقاسيون يطل على دمشق، بقينا هناك حتى تأخَّر الوقت دون أن نشعر.

وهل للعاشق أن يحسب الوقت وهو غارق بالعشق؟!

وكأننا لم نكتفِ من الغزل والحب، كان يغازلني وهو ينفث دخان نرجيلته، تخرج الكلمات من شفتيه منكهة شهية، تلتهمها أذني بشغف وحب وجوع، وأبادله بها بعينيَّ وبصوت قلبي، احتفلت دمشق بنا واحتفلنا بها.

وهل للدمشقي ألا يشارك فرحه مع قاسيون؟!

أوصلني لمنزلي منهكَين متعبَين عاشقَين، همس لي بدون صوت: "أحبك." ونزلت ورفعت كعبي عاليًا بيدي أتمايل من خمر الحب، فتحت الباب مسحورة مذهولة غائبة عن العالم، وجدت أبي وأمي ينتظرانني، وشعرت بالإحراج فجأة، ابتسمت وقلت: "ثواني وسأعود." وأسرعت لنافذة غرفتي، لوحت لجود بيدي وذهب.

عدت لأبي وأمي وبدأ الاستجواب، واختصرت لهم أين ذهبنا، واعتذرت على التأخير، اقتربت مني أمي واحتضنتني بقوة وقالت: "مبروك، وجود استأذننا بالتأخير." وفجأة ابتسم أبي أيضًا، "أتقصدان أنكما تعرفان من قبل بما حدث!" هزَّا رأسيهما بنعم، وضحكت "أنا آخر من يعلم! ولكن لا بأس هذه المرة سأسامحكما." ضحكا وبدأنا نتحدث عن كل ما حصل منذ أخبره عمي يزن حتى هذه اللحظة، ودخلت غرفتي أتراقص فرحًا.

وتصبح على خير أيها الحب.

****

جاد

في مطار موسكو كنا نقف على ضفاف الوداع، كنت أكره مراسم الوداع وكأنها تشييع جنازة بصوت ذكريات وألم ودموع، بصوت ضجيج الصمت كمراسم الموت، وكأنني سأترك نفسي- هنا وسأدفنها بهذا المطار، وسرعان ما أولد من جديد بمطار آخر، وتكون تلك الطائرة مجرد مرحلة انتقال ما بين أنا وأنا، ما بين موت وحياة، ما بين إنهاء وجود وإثبات وجود، وكَأنَّما على كرسي الطائرة تولد لي جذور جديدة، جذور هشة طرية صغيرة منتظرة الوصول لبلدٍ ما، وإما أن تُسقى

وتكبر وتنتشر في أرضها وتتثبت، وإما أن تُهمل وتيبس وتتساقط مع الخذلان، ويبقى الإنسان حائرًا لا جذور له لا وطن له لا منبت له؛ مشتتًا ضائعًا مشوهًا.

كنت أخاف من تلك المرحلة كثيرًا، أخاف أن أصدم بالرغم من توقعي للصدمات منذ صغري منذ أخبرتني أمي بأن لي أبًا وأخًا في أرضٍ ما تفصلنا قارات ولغات وشعوب، منذ كنت أكبر وأنا أتهيأ لشيء لا أعرف ما هو ولا كيف سيكون! عقدان من العمر كافيان لإقناعي، ولكنهما فشلا أو ربما أنا الذي فشلت.

كان وداعًا باهتًا تقليديًّا تغمره الدموع والشهقات والأمنيات التي كثيرًا ما تكررت في الآونة الأخيرة، كنت أهرب منها؛ أهرب من نفسي الروسية إلى نفس جديدة، من واقع إلى حلم واقعي. تصنَّعت اللعب بزر قميصي أحيانًا أو بحك جبيني أحيانًا دليلًا على توتري، أهرب من نظراتهم ونظرات المسافرين ونظرات المودعين بمطار موسكو وكأنهم كلهم لهم ذات النظرة (نظرة الشفقة)، أنظر إلى الأرض أو إلى ظهور الناس وحقائبهم، لم أمتلك الجرأة بالنظر لعينَي خالتي كارولين أو صديقي كريستوف اللذين كانا يقفان معنا ويرددان

الكثير من الكلمات والدمعات وتبادلهم أمي إياها، حمدت الله على وجود أمي لتخفف عني عبء الوداع.

ولكن لا بد من أن أحظى بالقليل من هذه اللعنة؛ لعنة السفر، وأن أؤخذ بالأحضان بقوة، وأن تنهمر دموعي عنوةً لمفارقة أناس أخذوا من داخلي قطعة، ربما لهذا السبب لم أُنشئ علاقات كثيرة في روسيا؛ لأنني متوقع بين الحين والآخر أن أرحل كما جئت قبل عشرين سنة.

جئت جنينًا، وها أنا ذا أذهب شابًّا ذا شخصية متكاملة وأفكار مترسخة وآلام أنهكت قواي أحيانًا، ها أنا ذا أذهب بكامل إرادتي للأب الذي لم أشعر بالشوق إليه من خلال عدد من الصور وبعض الذكريات التي تملأ ذاكرة أمي وجدران قلبها، ولأخٍ لم أره بحياتي ولكن بقينا في رحم واحد تسعة أشهر، ولربما لهذا السبب قررت الرحيل من أجله هو؛ لأنني بشكل أو بآخر أنا نصف وهو من يُكملني، رضيت بهذه الحقيقة أم أبَيْت.

ركبنا الطائرة بهدوء وبقينا ساعات لم ننبس ببنت شفه، نتبادل النظر أنا وأمي وكأن أعيننا تتحدث، وكأننا نحتاج لخلوة مع أنفسنا

لبعض الوقت، كانت أمي شاحبة ترتجف شفتاها، ودقات قلبها تعلو لتملأ الطائرة بموسيقاها، رائحة خوفها فاحت واخترقت دواخلي وتربعت، حتى أصبحت أبادلها ذات الشعور دون أن نتكلم.

خائفين كنا لحد الصمت! لحد الاختفاء! اختفينا ونحن على متن الطائرة انصهرنا على الكراسي وتوحدنا بها، لم نعد نشعر بشيء سوى ضجيج بداخلنا يكبر يكاد ينفجر، شعرت بتلك اللحظة أني إذا قلت لأمي "هيا نعود" لن تتردد، وكأن نظراتها كانت تدل على تلك الرغبة المجنونة التي تراودني بين الحين والآخر، ولكن إلى أين المفر؟! وإلى متى! لا بد من المواجهة اليوم أو بعد أعوام، لن يتغير شيء، ولن يتبدد الخوف، كنت أنظر لساعتي بين الحين والآخر، مترقبًا متشوقًا مترددًا، لعنتني الساعة!

وكأنها تحتاج لخلوة هي أيضًا، هي التي ستشهد تغيُّرًا بعقاربها لم تشهده بحياتها بعد قليل، تغيُّرًا بنظراتي لها، تغيُّر الشخص الذي تلتفُّ على يده كأفعى تمكنت منها وأبت أن ترحل.

ها هي الطائرة تعلن الهبوط، كانت رحلة ما بين الطويلة جدًّا والقصيرة جدًّا، ولكنها قد انتهت، وتعلن المضيفة بضرورة ربط أحزمة

الأمان، وكأنها تنبهنا بضرورة ربط مشاعرنا والتهيؤ لشيء غامض، وكأنها تقول: "جاد! اربط حزامك لتبقَ آمنًا "، ولكن لم تقل لي كيف! ليته بسهولة حزام الطائرة، ولا سيما الشرح الكافي الذي يقدَّم بعدة لغات مع التمثيل، ليتهم اهتموا بدواخلنا كما اهتموا بنا وشرحوا لنا ربط حزام أنفسنا وكيفية البقاء آمنين. ولكنهم لم يفعلوا.. اكتفوا بإنهاء المسؤولية الملقاة على عواتقهم بحماية أرواحنا فقط.

ها هو صوت المضيفة قد عاد، ربما تذكرت أن تخبرنا ما كان يجول بخاطري ولكنها قالت غير ذلك، أخبرتنا أن الطائرة قد وصلت وكم تبلغ درجة الحرارة في دمشق والتوقيت، وكل شيء روتيني، نظرت لأمي بذات النظرات المليئة بالكلام والصامتة، نظرت إليَّ بعمق وكأنها قالت لي: "ها قد وصلنا لبلدك، ها قد أوفيت بوعدي." شعرت بأن مهمتها قد انتهت وأنني أصبحت وحيدًا رغم وجودها معي، بقينا في الطائرة والركاب يتسابقون حتى فرغت الطائرة تقريبًا، كنا آخر راكبين ننظر لبعضنا وكأننا شُلِلْنا فجأة، سمعت صوت المضيفة تقول بالإنكليزية: "لقد وصلنا، ألن تنزلا!" هززت لها رأسي وأمسكت يد أمي ومشينا ببطء وبحذر، وكان لكعب أمي صدًى يتردد في أذني بعد كل خطوة.

ما هي إلا لحظات وأصبحنا على أرض دمشق، شعور غامض اعتراني، كان شبيهًا بالإحساس بالأمان أو شعور وطني لم أشعر به من قبل، نظرت للوجوه الدمشقية كانت تتميز بتلك الابتسامة التي تبقى مرسومة ليأخذ الوجه شكله بها، وكأنها جزء أساسي كالفم والعين، كنت لا شعوريًّا أبادلهم ذات الابتسامة، حاسة سادسة تملَّكتها عند وصولي لدمشق أو ربما هي تملكتني؛ وهي حاسة الابتسام.

وكأنها جزء لا يتجزأ من السوريين رغم همومهم ومشاكلهم وفقرهم ولكنهم حافظوا عليها، وللحظات شعرت وكأنها تبثُّ الطمأنينة لنفسي، وشعرت أن كلهم أبي وأخي، كلهم ضالَّتي.

أخذنا حقائبنا وخرجنا، نظرت للحشد الكبير من المستقبلين، تمنَّيت أن يكون أحدهم جاء لاستقبالي، ولكن لم يكن هناك أحد، كان بعضهم يحمل الورد بيده وبعضهم يحمل الدموع والأشواق.

خرجنا وأوقفنا سيارة أجرة، أعطته أمي ورقة العنوان، أخذت شهيقًا طويلًا كان كافيًا لإدخال دمشق بما فيها لرئتيَّ، كنت أتأمَّل دمشق بشوارعها وهوائها وكل تفاصيلها، وكأن جذوري بدأت تتثبت بلا وعي مني، وكأنني بدأت آخذ هويتي التي فقدتها منذ عقدين.

وهل تنوب بدل الفاقد عن الأصل؟!

لم أتنبَّه كم قضينا من الوقت ونحن في التاكسي، جاء صوت أمي وكأنه بعيد: "كن قويًّا." نظرت إليها، تصنَّعت ابتسامة كان يُفترض عليَّ تصنُّعها.

وها نحن أمام منزل أبي، أو منزلنا، وقفنا دقائق، كنت أتأمَّل المنزل من الخارج، بابه الأسود الحديدي، وباب الكراج الكبير، والنوافذ المغطاة بستائر، والشجر الذي يطل علينا من السور، بينما كانت أمي تستحضر ذكرياتها، دمعت عيناها فجأة وكأن شيئًا قاسيًا قد حدث يومًا من الأيام في هذا المنزل الضخم.

اقتربت أمي ببقاياها وقرعت الجرس، وطال انتظارنا، سمعنا صوتًا أنثويًّا يحاول التكلم بالعربية، وبعد قليل فُتح الباب، ظهرت الخادمة الإندونيسية، نظرت لأمي بدهشة، وسرعان ما نظرت إليَّ وشهقت شهقة قوية وهي تتأملني، للحظة شعرت بأن شكلي مخيف! أو أنني مشوه، ولكن كلماتها أيقظتني، كانت تنطق جملًا غريبة، ربما بالإندونيسية، وقالت اسم جود أكثر من مرة، فهمت بسرعة أني أشبه

جود لدرجة أخافتها، كان أحد أسئلتي في العقدين اللذين مضيا، هل حقًّا نتشابه أنا وأخي كثيرًا؟

وها هي ملامح الخادمة وذعرها يجيبان على سؤالي من اللحظة الأولى وعند باب هذا المنزل الذي سيحمل مفاجئات وصدمات كثيرة، وهذه أولها.

"هل الأستاذ يزن موجود؟" سألتها أمي بالإنكليزية، أومأت برأسها وهي ما تزال تنظر إليَّ بدهشة وخوف، وابتعدت عن الباب كإذنٍ لنا بالدخول، لم تقوَ على سؤالنا من نحن! أو ماذا نريد من يزن! وكأن شكلي قد أخذ صوتها وبدَّده.

دخلت أمي وتبعتها بهدوء وكأنها من يعرف هذا المنزل جيدًا، وصلنا لباب ثانٍ كان مفتوح قليلًا، دخلته دون طلب الإذن أو حتى دقه، ولكن كانت الصدمات تتوالى في هذا اليوم فكانت الصالة مليئة بالصور وكأنها أجوبة على أسئلة دارت برأس أمي كثيرًا، اقتربت أمي من الحائط المكدَّس بالصور ولاشعوريًّا تبعتها، كانت الصورة الأولى لرجل وامرأة كبيرين في العمر، وعلى زاوية الصورة شريط أسود، تأمَّلت أمي تلك الصورة كثيرًا، لا بد أنهما جدي وجدتي ولكن يبدو

أنهما توفيا، والصورة الثانية لرجل وامرأة وطفل دون شك هو جود، تفاجأت لشدة تشابهنا وكأنها صورتي في الماضي، تأملت أبي وهو يمسك بيد جود، وتأملت ملامح المرأة التي تشاركهم الصورة، نظرت لأمي وجدتها تبكي بلا صوت؛ فها هي ترى ولدها يقف مع امرأة ثانية، وها هو زوجها يمسك بيد غيرها. كان هناك الكثير من الصور، كل صورة تحمل ذكريات وقصصًا وأسرارًا، وخصوصًا الشريط الأسود الذي كان على أغلب الصور والذي يخبرنا عن موت قد سبقنا لهذا المنزل وأخذ منه الكثير. كنت حائرًا أمام ضخامة الصور، وضخامة ألم أمي، واخترق هذا الفضاء والصمت والألم، صوت خشن يحمل في مقاماته الكثير من الحنان: "أهلًا"، بنبرة استغراب.

ثوانٍ فصلت بين سماعنا هذا الصوت وبين التفاتنا إليه، وما إن التفتنا حتى رأيت ملامحه تتجهَّم وعينيه تتسع وهو ينقل النظر بين أمي وبيني، رُبطت ألسنتنا فجأة، وكنت أتأمل ملامح أبي وهو يقف أمامي بعيدًا عن الصور القديمة، أتأمل شعره الذي غزاه الشيب وزاد من جماله ووقاره، بعينيه وبلحيته وبكل تفاصيله، أتأمل استغرابه واتساع عينيه ولمعتهما، هل عينه تدمع!

نظرت ليده كانت ترتجف وشفتاه ابيضت فجأة، وأول من نطق بيننا كانت أمي؛ قالت بالروسية: "يزن!" نظر لها وأعاد النظر إليَّ، أكملت بما تبقى من قوة وجرأة: "هذا ابنك جاد." الصدمة سلبته الكلام والتعبير، وأصبح ينظر إليها بتعمق؛ أي أكملي، "منذ عشرين سنة عندما تركت دمشق وعدت إلى روسيا كنت حاملًا بتوأمين"، " ولكن.." سألها أبي وسكت. أكملت: "أتذكُر عندما اتصلت بي وأخبرتني بأنك ستأخذ ابننا وهددتني إن حاولت الرفض؟" هز رأسه، وأكملت: "ولكن أنا أُمٌّ يا يزن! وعند معرفتي بأنني أحمل توأمين بأحشائي بقيت حائرة لأشهر، وفي النهاية جزمت أن هذا أفضل حلٍّ، ولكنني كنت مخطئة وللمرة الثانية."

فهمت من كلام أمي بأنها من تركت أبي وليس العكس، شعرت لأول مرة بأنني أعذر أبي رغم اتهاماتي المبطنة له طول تلك السنوات، ولكن ها هو أمامي الآن مجردًا من الاتهامات، وبذات الوقت لم أستطع أن ألوم أمي، لا أدري لماذا.

نظراتهما حائرة خائفة، كانا ينظران لبعضهما بعمق، قالت أمي: "أخطأتُ كثيرًا بحق عائلتنا ولكن جاد ليس إلا ضحية." دمعت عيناها بينما اقترب أبي مني.

كنت أتضائل وهو يقترب حتى أصبحت جنينًا كما كنت قبل عشرين سنة، نظرت لعينه وهو يقترب، كانت عيناه تدمعان وكأنه قد تحطم للتوِّ، وصل أمامي تمامًا، لا يفصلنا إلا شبر واحد، من شدة تأمُّلي له دمعت عيني وخفضت رأسي، ها أنا ذا أقف أمام أبي وأنظر لعينيه وأبكي أمامه، ها أنا ذا أعود طفلًا أخاف وأترقب.

خفت من ردة فعل أبي وهو ينظر إليَّ، لم أستطع أن أقرأ نظراته أو أفهمها؛ لذلك خفضت رأسي، تواريت عن النظر مباشرة لعينه، ولكنه رفع رأسي بيده واحتضنني بقوة، بقيت للحظات لا أستوعب ما يحدث، ولم أحرك ساكنًا، بقيت يدي ممدودة لأسفل ودمعتي تجمَّدت بعيني، ولكن سرعان ما أحطته بذراعي وأجهشت بالبكاء كطفل صغير وجد دُميته الضائعة بعد سنين. بقينا على نفس الوتيرة دقائق وجميعنا يبكي، ومع صوت بكائنا سمعت صوت أقدام على الدرج المجاور لنا، وبعد قليل ظهر جود أمامي.

وكأنني أنظر لنفسي بالمرآة، نظرت له بعدما ابتعدت عن أبي قليلًا، كان شعره أقصر من شعري، وكانت بشرته قد صبغتها الشمس بالقليل من السمرة، ولكن ما دون ذلك فهو نسخة مني، أتأمل تفاصيله، أبحث عن اختلاف بسيط، وهو يتأملني بصدمة أكبر من

صدمة أبي. للحظة تمنيت أن أحتضنه بقوة ولكن شيئًا ما منعني وأوقفني، ربما نظراته أو حاجبه المرفوع باستغراب، أو عيون أمي وهي تلتهمه بحب.

****

جود

أنهيت مكالمتي مع ليال وجلست أتأمَّل بعض الصور على حاسبي المحمول عندما سمعت صوت أحد في الأسفل، انتظرت قليلًا ولكن فضولي كان أكبر، فتحت باب غرفتي واقتربت من الدرَج بهدوء، سمعت وكأنَّ أحدًا يبكي! كنت أسمع شهقات.

شعور غامض اعتراني، وشعرت دقات قلبي ترتفع وتعلو، خطواتي كانت مترددة لا أعلم لماذا، نزلت الدرج وبعد سبع درجات توقفت، وكأن أحدًا أوقفني، تنفست بصعوبة وأكملت الدرجات المتبقية بنفس وتيرة الخوف.

رأيت أبي يحتضن شخصًا ويبكي، وامرأة تقف بجوارهما وتبكي أيضًا، تأملت ملامحها، شعرها الأشقر وعيناها الزرقاء، وكأنها بالثلاثينيات

من عمرها، نظرت إليَّ ورأيت بعينيها نظرة مختلفة، لمعت عيناها بشدة وهي تتأملني بشغف وجوع، التفت أبي إليَّ ومن ورائه شاهدت الصدمة! توقَّف عقلي عن الاستيعاب، من هذا!

وكأنني أقف أمام نفسي، كان شابًّا نسخة طبق الأصل مني، يقف أمامي وعيناه حمراوان من شدة البكاء، يده ترتجف، دقائق صمت وكأنها ساعات، ألف سؤال يدور برأسي، ولم أستطع أن أنطق بكلمة، نظرت لأبي أسأله بعينيَّ وأتوسل إليه أن يتكلم ويشرح لي كل شيء، ولكنه خفض رأسه، نظرت لتلك المرأة وهي تأكلني بنظراتها وعيناها تدمعان، نظرت لذلك الشخص؛ النسخة الثانية عني!

بدأت أتمتم: "أبي!" لم ينظر إليَّ. "ماذا يحدث!" بقي صامتًا ينظر لأسفل، اقتربت بخوف وصرخت: "تكلَّم أبي!" وضع يديه على ذراعي وقال: "اهدأ جود، سأشرح لك كل شيء." صمت مدة دقيقتين وكأنه يرتِّب الكلام والأفكار، وقال لي وعينه تدور في كل مكان: "هذه أمك، وهذا أخوك جاد." لم أعد أسمع بعد تلك الجملة، دوارٌ أصابني وأنهكني وفتَك بي.

أرى شـفتي أبي تتحركـان، وأرى تلـك تـبكي وذاك ينظـر إليَّ، ولكـن.. التفتُّ، سمعت صوتًا يناديني من الخلف: "جوود!" وخرجـت مسرعًا، ركبت السـيارة كـالمجنون، لا أعلـم مـاذا يحـدث! فكيـف هـذه أمـي! ودانيا من تكون! وكيف لي أخ؟! كاذبون! مخادعون! من أنـا! دمـوعي انهمَرت والأفكار تلعنني وتسيطر عليَّ، بقيت أقـود السـيارة ولا أعلـم أين أذهب، ولكن سرعان ما وجدت نفسي بطريقي إلى قاسيون.

هل قاسيون أمي أيضًا، أم أنها كذبـة جديـدة! وصـلت لمكـان معـزول خالٍ من الناس تقريبًـا، أوقفـت السـيارة ونزلـت أبـكي بحرقـة، تـدور دمشق من حولي، تلمع النجـوم وتـتراقص فـوق رأسي، بكيـت لدرجـة الألم.

بقيت ساعات أبكي وكأنني استحضرت دمـوع عمـرين أو أكـثر، دمـوع تكفي عالمين أو أكثر ولكنها لم تكفِني، شـعرت وكـأن دمشـق بمـا فيهـا وبمن فيها ضاقت بي فجأة وأصبحت باردة شاحبة وكأنها خدعة، كذبة.

قاسيون لا تكذب ولا تخدع!

ولكن الناس يفعلون ذلك، دون رحمة أو شفقة، يكـذبون دون أن يرفَّ لهم رمش، دون أن تتحرك بهم شعرة.

فقدت ثقتي بنفسي، أطفأت هاتفي واختبأت بحضن قاسيون أبكي وأتألم وأتمزق.

يد وُضعت على كتفي أعادتني لذلك الحلم الذي رأيته بعد موت أمي.. عندما كنت على قبرها ويدٌ وُضعت على كتفي، التفتُّ وجدت جاد ينظر إليَّ. هل هو من كان يشاهد أحلامي ويشاركني بها! هل هو من ربَّت على كتفي بعد موت أمي! هل هو من حاول الاقتراب! نظرت له مستغربًا. قال بالفصحى: "لا تبكِ أخي، تعالَ معي"، وقفت دون أن أدري إلى أين، أمسك يدي وسَرَت مشاعر بجسدي كهربتني، كنت كالمخدَّر بعد ساعات بكاء شلَّت حواسي.

كانت سيارة عمي خليل بجوار سيارتي، نزل منها واحتضنني بقوة وقال: "تعالَ معي." تركت سيارتي بقاسيون وذهبنا نحن الثلاثة إلى بيت عمي خليل، دخلنا بهدوء أنظر إلى جاد بين الدقيقة والثانية أراه ينظر إليَّ بحب، التفتُّ لعمي خليل "هل هذا صحيح!"، "نعم صحيح، سأشرح لك كل شيء إذا أردت ذلك، ولكن بعد العشاء." آخر فرصة لتكذيب ما سمعت قد تلاشت بعد جواب عمي خليل، كان قلبي ينزف ألمًا ودمعًا، وعينيَّ جفَّتا تمامًا من الدمع. جلسنا على طاولة العشاء ننظر لبعضنا أنا وجاد، "تفضَّلا"، قالها عمي خليل وكأنه

يقتحم نقاشًا طويلًا دار بيننا، وكان جاد يبتسم وكأنه يحاول تهدئتي، ولكنني فشلت بمبادلته الابتسامة.

بعد العشاء أخبرني عمي خليل بما حدث منذ سفر أبي إلى موسكو إلى عودته هو وزوجته ورفض جدي لها وحملها، كان يكرر: "الحياة قسَت عليهما كثيرًا بعد طرد جدك لهما." وكأنه يبرر لها سبب رحيلها ولكنه فشل؛ فأنا لم أبرر لها شيئًا ولا سيما تخليها عني، ولكن جاد ونظراته وشبهه أستطاع أن يتعمق داخلي؛ فهو ضحية مثلي، كيف لي أن أكرهه؟! فهو الذي لو رفضت الدنيا فلا أستطيع رفضه بشبهنا الكبير، لا أستطيع إنكاره؛ فهو يحمل هويتي على وجهه وأحمل هويته على وجهي.

يزن

تمنيت مجيئك يا ألينا كثيرًا، تمنيتك أكثر من أي شيء، كرهت غيابك وذكراك ولكن..

هل أمنيتي لهذه العام تحققت! لا أستوعب ما يحدث، كيف فعلتِ هذا يا ألينا! كيف لم تخبريني بجاد منذ عشرين سنة! كيف جئتِ

الآن! ولكن رغم ذلك مشتاق إليك أنا وكلي حنين، ما زلت جميلة، أو ربما أصبحتِ أجمل من مراهقتك، أصبحتِ أنضج وأشهى..

لمَ فعلتِ هذا بنا! أسئلة كثيرة دارت برأسي عندما رأيتها تقف أمامي وبجوارها جاد قطعة مني، لم أتمالك نفسي- واحتضنته بقوة وكأنني أحاول أن أعوض السنين التي فرَّقتنا، ولكن ها هو جود الضحية الكبرى بهذه اللعبة وبهذه الخدعة قد انهار، ولم أستطع أن أخفف عنه كعادتي؛ فبهذه المرة كنت من الأسباب التي أوصلته لهذه الحالة، ها هو جود ينام خارج المنزل، وها هي ألينا تنام بهذا المنزل الذي طُردنا منه من سنوات، ها أنا ذا أقف حائرًا بين ماضٍ وحاضر، بين حب وأبوة.

نمت في غرفة جود ليلة البارحة أتنفسه وأنعزل، لم أحدِّث ألينا، لم أعاتبها، لم أخبرها أني اشتقت لها، وكأن مفاجأة جاد شوَّهت كل ما فكرت به من سنين، شوهت الحب والغفران واللوم.

عندما رأيته أول مرة عاد ذاك الصوت اللعين إلى أذنيَّ بقوة: شهقة فبكاء فشهقة، وعندما احتضنته سمعت شهقته واختفى الصوت، كانت ذات الشهقة، واستطاعت تحريري من ذلك الصوت (سجين

أذنيَّ) منذ سنين، استطاعت إزالة إشارة الاستفهام التي كانت تتبع هذا الصوت، استطاعت تحويل إشارة التعجب لجواب واضح، سنوات وجاد يرافقني دون أن أشعر بشهقته وبكائه وبتوسله إليَّ.

في الصباح جلسنا أنا وألينا إلى طاولة الطعام لتناول الإفطار، كانت تجلس بمواجهتي تمامًا لأول مرة، كان إفطارًا هادئًا صامتًا عدا صوت أنفاسنا ودقات قلبينا. نظرت إليها: "وماذا الآن؟" سألتها وأنا أسلمها كل قوتي، وأنا أعلن لها استسلامي وتسليمها زمام الأمور، "لا شيء، دعهما لبعض الأيام معًا." وخفضت رأسها، وأنا الذي كنت أسألها: ماذا عنا! ماذا عن حبنا! ماذا عن علاقتنا، ولكنها كانت ناضجة بجوابها، ناضجة جدًّا، ليست كتلك المراهقة التي تزوجتها لا تشبهها أبدًا، ربما تغيرت بسبب السنين أو بسبب الفراق.

تحدثنا عن الماضي، وسرعان ما هبَّت العواصف ونثرت الأوراق وبقينا نتحدَّث أربع ساعات متواصلة.

نبكي تارة ونقترب تارة أخرى، كانت مساحات سوداء كبيرة تُضاء بعد كل جملة منها، تفهَّمت أسبابها، أو ربما أقنعت نفسي- بذلك، ولكن تأكدت من ندمها وتغيُّرها، تأكدت من وفائها وتكريس حياتها لجاد

فقط ولذكرى حبنا. أخبرتها عن دانيا ولخصت لها العشرين سنة بساعات، عن آلام الحياة وخيباتها، تحدثنا لحد التعب، على ذات الطاولة ولأربع ساعات كنا نتحدث ونبكي ونصمت ونتألم، وكأننا خصصنا هذا اليوم للماضي. وفي نهاية الكلام اقتربت منها وقد انتفخت عيناها من شدة البكاء، مسحت دموعها وهمست لها: "سيكون كل شيء على ما يرام"، "أتمنى ذلك."

اتصلت على خليل لأسأله عن جود وجاد، أخبرني أنه تركهم بعد الفطور وذهب للمستشفى، وقال لي: "لا تقلق، بدآ يتقربان من بعضهما." تنهَّدت بعمق وأنهيت المكالمة، نظرت لألينا وأخبرتها بأنهما بخير.

كم من معجزة نحتاج معها لنتعايش مع الواقع! وكم من واقع نحتاج معه لتلك المعجزات!

حبي وشوقي لألينا كافيان لإطفاء غضبي، وجاد قطعة جديدة كافية لإحيائي من جديد، فجود وجاد أكسجين حياتي، لي رغبة باحتضان جاد وإدخاله داخلي، أن أبقى معه بغرفة لسنين لأعوِّض ما قد مضى، ولكن حتى الآن لم أحظَ بفرصة الكلام معه؛ فها هي الأيام

تمضي وجود وجاد لم يأتيا بعد، كيف أصبحا! كيف أصبح جود! هل تقبَّل أخاه كما تقبلت ألينا من جديد، هل تكلما! وهل يستطيعان ألا يتكلما وهما قطعة واحدة قُسمت وتفرقت سنوات طويلة، فهل اندمجا من جديد كما كانا برحم ألينا وبأحشائها.. جاء أحمد صندوق أسراري وآلامي باليوم السادس، وكأنه أراد تركي مع ألينا ستة أيام لنعيد ذكريات السنين ونختلي بأنفسنا، جلسنا نحن الثلاثة ننظر لبعضنا، قال بالإنكليزية موجهًا كلامه لألينا: "أهلًا بك ألينا"، ابتسمت: "أهلا بك أحمد"، نظر إليَّ وأكمل: "طال انتظارنا." بادلته بنظرة حادة بألا يفتح ذاك الصندوق، غيَّر الموضوع "لا تقلقا؛ جود شاب واعٍ وسيعود قريبًا وسيتفهَّم ما حدث"، نطقت لأول مرة بتنهيدة: "أتمنى ذلك ولكن.." قاطعتني ألينا وأكملت: "لكن ليس من السهل ما حدث." ابتسم وأكمل: "وجود شاب فطِن، فلا تقلقا." حاولت أن أهدأ بعد هذه الجملة، وسأل: "ماذا عنكما؟" ووضع فاصلة بصمته "ستتزوجان!" خفضت ألينا رأسها خجلًا، وأجبت: "كل شيء مرهون بردة فعل جود، سيبقى الأمر معلقًا حتى يعود." قال بسرعة: "ولكن ليس من اللائق أن تبقيا معًا دون زواج." سرحت ألينا بخيالها وقالت بصوت يبعد عشرين سنة: "نفس الجملة قالها يزن في موسكو منذ زمن ."

****

جاد

دخلنا بلعبة لا انسحاب منها؛ لعبة تُنهِك لاعبيها بفن، تجردهم من قواهم ومن طاقاتهم لترميهم على الضفاف متعبين منهكين ولا يستطيعون حتى الانسحاب، يجدر بهم الاستمرار، الاستمرار بإنهاء سعادتهم، الاستمرار بدفن بقاياهم وبتشويه دواخلهم، ولكن لا بد من الاتكاء على بعضنا؛ فنحن دائرة مغلقة، سقوط أحدنا يدل على سقوطنا جميعًا.. لا بد من التضحية والإيثار.

كان جود الحلقة الأضعف، وكنت من يحيط بتلك الحلقة ومن يجب أن يعطيه القوة والمحبة ليستمر بدوره بتلك اللعبة.

كنا قد حطمنا الصمت بيننا وبعض الحواجز ولكن لم نذِبها. قلت لجود وهو متغيب عن الواقع، مسجون بقوقعة نفسه: "أمي تحبك كثيرًا." لم ينظر إليَّ، وربما لم يصدق تلك الترهات. "أتعلم أن في كل سابع عشر من تموز كانت تشتري لك هدية وتخبئها تحت سريرها!" صمتُّ قليلًا وأكملت: "وفي كل ليلة تبكي لحد النزيف، كانت تنزف منك وبك، كانت تبكي دمًا ليس لمجرد تفريطها بك ولكن لأنك لن

تغفر لها أو تتفهمها." نظر إليَّ ورأيت داخل جوف عينه دمعةً أبت أن تظهر، ولكنني رأيتها لأنني أرى داخله بسهولة، لأنه أنا بشكل أو بآخر.

تصنَّع اللامبالاة وتصنَّعتُ التصديق، ولكن كلانا يعرف أن الآخر كاذب، كان قلبه يحثني على الكلام وعقله يحثني على الصمت، ولكنني اكتفيت بكلام قلبه، "أخبرني جود أنه عندما أتصل أبي بأمي وأخبرها أنه سيأخذ المولود وحذَّرها من الرفض، ماذا كان يجب أن تفعل! أظنك ستسأل لماذا أنت بالتحديد! ولكنها إرادة الطبيعية وإرادة الخالق التي لا نستطيع تفسيرها أو تفهُّمها.

كان جديرًا بك أن تأتي لدمشق مع أبي وتحيا بأحضان دمشق، وتحظى بأمٍّ تحبك وتعتني بك، وتلتقي بالبنت التي أحببتها وارتبطت بها، وأن أبقى أنا مغتربًا لعقدين من العمر؛ أكبر بوطن أمي وبعاطفتها، وأن أكتفي بانتظار لقائي بكم." نطق لأول مرة: "هل كنت سعيدًا بروسيا؟" شعرت وكأنه يريد التعرُّف عليَّ أنا وليس على أمي، يريد التعمق بي أكثر، أومأت برأسي: "لم أكن سعيدًا، ولم أكن حزينًا، كنت أظن نفسي ضيفًا، وتعايشت مع الأمر، كان لي صديق يُدعى كريستوف، وقبل سنة تعرفت على جيوسيبي، ولم يكن لديَّ أصدقاء

سواهما، وأتمنى أن تجتمع ذات يوم أنت وكريستوف؛ فهو متشوق لرؤيتك." نظر إليَّ باستغراب "رؤيتي أنا!"، "بالطبع، كنت أتحدَّث عنك بصمْتي وعزلتي وشرودي وتقلباتي الدائمة وكان منصتًا نهمًا لنا."

ابتسم جود لأول مرة وقال: "أتُصدِّق إن أخبرتك أمرًا؟" أومأت برأسي أحثه على الكلام "منذ كنت في الثامنة من عمري كنت أراك "، تعجبت لكلامه؛ فكيف كان يراني وهو لا يعرف أن عنده أخًا! قرأ دهشتي وأكمل لإزالة إشارة الاستفهام: "منذ ذاك الزمن كنت في كل حلم يراودني أشاهد شخصًا ينظر لحلمي من شاشة شبيهة بشاشة التلفاز، وعندما توفيت أمي دانيا حلمت بأنني أجلس بجوار قبرها وأبكي بشدة، فوُضعت يد على كتفي، حاولت النظر لصاحب اليد ولم أستطع، ولكن منذ أيام عندما وضعت يدك على كتفي بقاسيون عرفت أنها لم تكن سوى يدك أنت، ولم يكن ذاك الشخص إلا أنت." دمعت عيناي غير مصدِّق مدى ترابطنا ومدى علاقتنا الروحية، ولأول مرة احتضنت جود بقوة وبكينا معًا، اختلطت دموعنا كما يذوب السكر بفنجان قهوة، تأكدت حينها أننا لا نستطع العيش دون بعضنا، وأن كلانا نصف الآخر، وأنني أحببته لدرجة العشق. عندما كنت أحتضنه شعرت ولأول مرة معنى كلمة (أخ) التي كنت كثيرًا ما

أسمعها ولا أعيرها أي اهتمام، تمنيت أن يقف الزمن والساعات وأن نبقى منصهرين مندمجين كما كنا في رحم أمي.

دموعنا غيرت تلك النبرة التي كنا نتحدث بها مسبقًا كأغراب، جعلتني أحدثه كقطعة مني، كشيء لي "حدثني عمَّن سَلَبت قلب أخي!" ابتسم وهو ينطق اسمها "ليال"، تنهد تنهيدة حب أحيت قلبي وجعلته يتراقص، تحدَّث عنها وفي عينيه لمعة حب ممزوجة ببراءة، كان يضحك بخجل ويحكُّ أسفل رأسه، تجرَّدنا من الحديث عن أمي وأبي وأخطاء الماضي، تجردنا من محاولاتنا للتقرب من بعضنا وانصهرنا والتحمنا، تحدثنا كثيرًا ولكن هذه المرة عن أنفسنا، عن السنين التي مضت ونحن متفرقَين بلا رغبة منا، تحدثنا وتحدثنا حتى غفونا على تلك الكنبات، وبقيت الكلمات على شفتينا تنتظر الصباح حتى تتراقص وتتسامر، بقيت قلوبنا تحرسنا وتتحدث، النوم سرقني من أخي وسرقه مني، ولكن قلوبنا لم تكتفِ، أكملت الكلام والحب والالتحام، أكملت ما عجزت ألسنتنا على إكماله.

نمت كما لم أنم من قبل؛ دون أن أفكر قبل النوم، دون أن ألتحف القلق والترقب، نمت خاليًا طاهرًا نقيًّا كثلج تموز، نمت بجوار أخي وكأن غيمة تموز البيضاء التي مرت بسماء 1990 قد عادت الآن لتقف

فوق رؤوسنا تمامًا، تشعر بالفخر بالتقاء قطعتيها الوحيدتين بعد عقدين لتثلج علينا من الطمأنينة والحب وتقبِّل جبيننا وتتلاشى في سماء دمشق..

****

خليل

صدمة عودة ألينا كانت كبيرة على الجميع؛ فكيف إذا حملت معها صدمة ثانية، أشعر أن يزن وألينا كتلك الدمية الخشبية التي تحمل داخلها دمية أصغر، والدمية الأصغر تحمل داخلها دمية، كلما قلَّت هذه الدمية الأخيرة تجد واحدة جديدة، متاهاتهم أفقدتنا القدرة على الفهم وعلى السيطرة، أحمد الله أن جود شاب واعٍ ومثقف؛ لو كان غير ذلك لما أمكن أن يتجاوز تلك الصدمات التي تتوالى عليه..

بالرغم من تلك الصدمات والأجواء المشحونة بالتوتر والقلق كنت سعيدًا بسرِّي؛ فها هو المنزل الذي لا يشهد أنفاسًا غير أنفاسي يملؤه شابان بكامل حيويتهم وعنفوانهم.. لم يكونا مجرد شابين عاديين؛ جود

وجاد نهران لهما مصب واحد ومصدر واحد، كثيراً ما شعرت بأن جود كابني الذي رزقني الله به، والآن أصبحا اثنين.

كان جاد يشبه جود بشكله وبطبعه تقريبًا ولكنه أهدأ منه قليلًا وأشد غموضًا منه بعض الشيء، كان متزنًا هادئًا محترمًا، توسَّط قلبي كما توسطه جود منذ عشرين سنة، تربَّع داخلي، كنت أشهد لقاءً نادرًا وتلاحمًا بين نصفين يكتملان في شرنقة.. وكانت تلك الشرنقة شقتي المتواضعة.

ولكن سعادتي وسعادة منزلي لم تدم كثيراً؛ ففي اليوم العاشر ذهبا لمنزلهما، أوصلتهما بنفسي إلى المنزل الذي شهد تغيرات وتشققات وولادات جديدة.

بدأت حياتهم تأخذ مجرًى آخر، مجرى أسرة متكاملة رغم بعض الشقوق التي باتت واضحة وبعض الثغرات، ولكنهم حاولوا التعايش معًا، لم يكن من الصعب أن يسامح جود أباه ويتفهمه؛ فهو يحبه من صغره، ويزن لم يبخل بدلاله واهتمامه بجود، ولكنه لم يستطع أن يسامح ألينا واكتفى بتجاهل وجودها، على عكس وجود جاد الذي أصبح يتفاخر به، ويأخذه معه أينما ذهب ويعرِّفه على دمشق وعلى

أصدقائه وعلى ليال، كانا كفراشتين تنيران السماء وتُناران منها، تتطايران بخفة وبهجة تسرق أنظار الجميع وفرحتهم.

ألينا

فشلت بكسب قلب وود جود، كنت أراه أمامي ولا أستطيع احتضانه، كان يتجنب النظر إليَّ أو الكلام معي، الأيام تمر وأنا عند ذات النقطة، أقف وأترقب وأنتظر، ولو كان يجب أن انتظر سنين فلن أملَّ؛ فهو محق بكل شيء، ولكن الذي كان يخفف بعض ألمي هو علاقته بجاد القوية والوطيدة، وكأنهما كبرا معًا، يتسامران حتى يغفوا، كنت أدخل لغرفتهما أجدهما نائمين بلا غطاء والتلفاز يعرض أحد الأفلام، كنت أطفئ التلفاز وأسحب الغطاء عليهما وأقبِّل جبينهما وأذهب، كانت تلك أسعد لحظات يومي، اعتنائي بهما بسرِّي يسعدني لحد الغياب عن الوعي، كمن ملك الدنيا بما فيها وأصبح ملكًا على عرشه، كنت ملكة على عرش الأمومة أتراقص كزهرة يفوح عطرها ليخترق رئتيهما ويمدهما بالسعادة.

ليتني فهمت معنى الأمومة قبل عشرين سنة، قبل أن أخطئ وأفرِّط بجود، ولكن الآن لن أكرر ذلك الخطأ مهما كان الثمن.

كانت علاقتي بيزن بالشهر الأول شبه متوترة، تمتد كمد وجزر؛ مذبذبة، تارة نقترب لحد الالتصاق وتارة أخرى نبتعد وكأن قارات قد توسطت بيننا، كان يقترب بقوة الحنين ويبتعد بقوة العتاب، ولكنه كان عاشقًا، لعينيه لمعة كتلك اللمعة المراهقة التي كانت تظهر عندما يرمقني بأنحاء موسكو منذ أحببنا بعضنا، أحمِّل نفسي كامل المسؤولية بالتفريط به وبحبه، ولكن قلبه كان لينًا بين يديَّ كعجينة أستطيع أن أشكِّلها كما أريد، ولكنني كنت أحترم قراراته وابتعاده أحيانًا، لأنني كنت أعلم أن قوة الحب أشد من قواي، وأنها تثلج على قلبه وتعتصره ليصبح كحبة التوت الشهية مليئة بالمشاعر النقية التي شوهتها أنا والتي أعيد تطهيرها..

كان كمن يشرب عصير التفاح حامضًا وحلوًا، كان التفاح كنبيذ فاخر يحتسيه بتلذذ، كنت ذلك النبيذ أتأوى بين شفتيه بمرارة تارة وبحلاوة تارة أخرى.

وكنت أتلذذ بتلذذه وأغوص بغموض التفاح، أعشق تقلباته تلك التي ترفعني لسابع سماء وتعيدني لسابع أرض.

****

جاد

اتصلت ليال بجود ليخرجا معًا، وألحّ عليَّ بالذهاب معهما، لكنني رفضت وأخبرته بأنني أرغب أن أتعرف على دمشق عن كثب على قدميَّ دون عجلات سيارة.

تُهت في شوارع دمشق وكأنني أبحث عن نفسي- بين طياتها، عن هويتي في أزقَّتها، لا أملك سوى ورقة عنوان المنزل لأعطيها لسيارة الأجرة بعد أن أتوه جيدًا في تلك المدينة، عشقتها منذ اللحظة الأولى، من مطارها إلى حجارتها التي كانت تشبه كل شيء عدا الحجارة، وكأنها لوحات فنية منقوشة بمتحف قديم، وكأن داخل كل حجر قصة أُحكم إغلاقها، دخلت لزقاق ضيق كانت تفوح منه رائحة القهوة ورائحة الياسمين وهو يتدلى أمام كل بيت، اقتربت من شجيرة للياسمين وسمحت لنفسي أن أقتطف إحداها، استنشقتها بقوة حتى تلاشت داخلي وعششت وكأنها رائحة طفولتي، لم تكن رائحتها الأجمل ولكنها كانت الأشهى!

شاهدت من بعيد فتاة تقف على مرسم خشبيٍّ ترسم مختلية بنفسها وكأن لا أحد في الشارع سواها، كان شعرها يتطاير مع حركاتها وأنوثتها التي تُزين بلا مستحضرات تجميل، كانت مندمجة مع اللوحة

وكأنهما خُلقتا معًا، بقيت أتأملهما لدقائق قبل أن أقترب وأسألها بالعربية الفصحى: "أتسمحين لي أن أقتحم عالمك؟"، نظرت إليَّ نظرة خاطفة جعلتني أرتبك! أنا الذي لم أرتبك أمام فتاة قط ارتبكت أمامها وارتجفت.. وكأن نظرتها حركت شيئًا بداخلي، قالت بالإنكليزية بذكاء وقوة ملاحظة: "أظن أنك اقتحمتها"، أيُّ فتاة هذه! وأيُّ شخصية لها! عنفوانها صارخ وجمالها مُبهر، أنيقة ومتمردة.. مرتدية فستانًا أصفر يصل لركبتها، يندمج معها وكأنه يرتديها وكأنها تحليه. قلت لها بصوت مرتبك بالإنكليزية: "أنا أحب الرسم جدًّا." وبدأت أحكي لها عن الرسامين والرسومات التي أبهرتني وأذكر لها التواريخ ومواقف حصلت مع الرسامين وحتى ميتات بعضهم، نظرت إلي بجوع ولهفة وقالت: "ثقافتك عالية بهذا المجال، أأنت رسام؟"، قلت لها بابتسامة نصر وكأنني قد كسبت أول جولة: "أنا لست رسامًا ولكني متابع نهِم وقارئ لما وراء الرسوم؛ أي معناها المبطن." ربما بالغت بعض الشيء ولكن كان لا بد من جذب انتباهها أكثر، أخذنا نتحدث عن الرسم والألوان والرسامين وجنونهم، أطلعتني على رسمتها، وكانت عبارة عن وجه فتاة شامخة رافعة الرأس عيناها تلمعان بعزة وعنفوان، شعرها متموج كأمواج البحر الهائجة، رُسمت بأقلام الفحم وزادت رونقها رونقًا، كانت رائعة، تعبر عن المرأة الشرقية بجمالها وشموخها، بكحلها

الأسود وبعنقها الشامخ وبحدَّتها، كانت تشبهها كثيراً، سألتها: "أهذه أنتِ!" ابتسمت وقالت: "لا أرسم نفسي مطلقًا، ولكن أرسم داخلي، وكل مرة ينعكس بلوحة مختلفة."، ابتسمت وقلت لها: "هناك لوحة تشبهك كثيراً، تشبه دواخلك كلها وتشبه غرورك وشموخك." نظرت إليَّ باستغراب وقالت: "أي لوحة هذه!"

ابتسمت وقلت: "دمشق، أنتِ فتاة على شاكلة دمشق، أو ربما دمشق مدينة على شاكلتكِ أنتِ"، شاهدت لمعة بعينيها: "أحقًّا!"، أجبت بابتسامة: "تشبهان بعضكما أكثر مما تتصورين." وأكملت: "دومًا تكونين هنا؟" أجابت وكأنها تحت تأثير تنويم مغناطيسي "غدًا سأكون هنا بنفس الوقت."

استأذنتها وذهبت، أردت أن أكتفي بهذا القدر اليوم رغم عطشي ورغبتي الجامحة بالبقاء، ولكن اللعب مع النار بحاجة لتأنٍّ ويكفي أن آخذ منها موعدًا على لسانها من أول مرة، وكم أنت بعيد يا غدًا.

ما هذا الشعور الذي شعرت به عندما رأيتها وغصت بتفاصيلها! أهذا ما يسمونه بالحب! كيف أحبها وأنا لم أرَها سوى مرة واحدة؟! وكيف لا أحبها وهي التي حولتني من ذاك الشاب القوي والصلب إلى شاب

لين يختار الكلمات بدقة قبل أن يتفوه بها؟! عندما أخبرت جود بذلك قال بصوت تملؤه البهجة: "هذا اسمه حب من النظرة الأولى، جاد أنت قد وقعت في الحب." ضحك بعد هذه الجملة، وشعرت بالخجل لأول مرة، وقلت: "لا يعلم المرء في أي أرض يعشق"، هاجمني بسرعة بأسئلته: "ما اسمها؟ كم عمرها؟" نظرت إليه باستغراب ودهشة، حقًّا، ما كان اسمها؟ وكم تبلغ من العمر؟" لا أعلم؛ لمْ أسألها"، "أي جنون هذا! ولا تقل لي إنك لم تأخذ رقم هاتفها أيضًا؟" تجهمت ملامحي وقلت بشيء من الغرور: "أخذت ما هو أهم من رقمها." وصمتُّ قليلًا وأكملت: "أخذت موعدًا، فغدًا سأذهب لأراها ."

ضحك جود وقال لي: "وجهك أحمر"، "ليس كذلك." "أتراهن!" ضحكت وقلت: "نفس حمرة وجهك عندما اتصلت بك ليال في صباح اليوم." بقينا نتحدث ونضحك ونخجل، ولكنني لم أتوقع نفسي- سأصارح أحدًا بحبي إذا أحببت ذات يوم، فكيف أخبرت جود بكل ذلك، جود مختلف تمامًا عن سائر البشر؛ ولا سيما معي أنا؛ فهو توأمي وقطعة مني؛ فهو من يفهم نظرتي دون أن أتكلم، ويفهم صمتي وحزني وحتى عشقي، فأنا لا أحتاج مبررًا لأخبره؛ لأنه كان

سيشعر بذلك وإن لم أخبره، فلا نحتاج إلى قواميس ومعاجم وكلمات لنتحدث، فقط أن أنظر لعينه ويصله كل شيء.

****

يزن

من الممكن أن يصبح المرء سجينًا بين غفران وشوق، لا يعلم ماذا يفعل أو بمَ يتصرف، ليس من الممكن أن يغفر غفرانًا كاملًا ولا من الممكن أن يرفض الشخص الذي أحبه، تزوجنا من جديد أنا وألينا؛ لأنه من المفترض علينا فعل هذا، كان كتب كتاب بالمحكمة ليس أكثر، ولم يكترث جود بما حدث ذاك اليوم، وكأن لا شيء يخصه.. عكس جاد الذي بدت فرحته عارمة عندما وضعنا القطعة الأولى من الهرم الذي نثرناه ذات يوم، تباعدت قطع الهرم كثيرًا ولوقت طويل ولكنه ها هي تجتمع من جديد لتشكِّل ذاك الهرم الضخم المبهر، ولكن ما زال هناك فجوات ونقص سنحاول ملأه ذات يوم - أرجو ذلك، انشغلنا أنا وجاد بتسجيله بالجامعة ما بين الدوائر الحكومية وتصديق الشهادة وما دون ذلك؛ فالسنة الدراسية الجديدة قد اقترب قدومها.

كانت أجواء المنـزل هادئـة لحـد السـكون والصـمت، أو مشـحونة لحد التوتر، كان جاد يقترب مني ومن جود أكثر، أحببتـه كثـيراً، كيـف كبر بعيدًا عني؟! أردد دومًـا بينـي وبـين نفسي، أتخـيلهما معًـا وهـما طفلان يلهوان ويلعبان ويصرخان معًا، يدخلان للمدرسـة ويكونـان في صف واحد.

يساعد جاد جود بالرياضـيات بيـنما يسـاعد جـود جـاد بالكيميـاء والعلوم، يكملان بعضهما، يقوي أحدهما الآخـر. منـذ أيـام كـان جـود وجاد بغرفة البيانو، عزف جود مقطوعة لريشار كليدرمان وعزف جـاد مقطوعة لباخ، وعندما انتهى جاد من العزف جلس بجواره جـود عـلى ذات الكرسي، كنا نقف أنا وألينا عند الباب، ولم ينتبهـا لوجودنـا لأننـا خلفهما، بدأ جود يعـدِّل أخطـاء جـاد ويعيـد عـزف المقطوعـة ذاتهـا، وبعد قليل اندمجا معًا؛ أربعـة أيـدي عزفـت تلـك المقطوعـة بإتقـان، أظن لو كان باخ يقف أمامهما لرفع القبعة وانحنى لإبداعهما، دمعـت عين ألينا وكانت تكتم أنفاسها، أمسكت يدها بحميمية وهمست لهـا: " القليل من الوقت عزيزتي، اصبري."

في تلك اللحظة شعرت بالحزن عليها كثيراً، رغم كل شيء فعلته، ورغـم جزمي بأنها تستحق ذلـك، ولكـن رأيـت بعينيهـا حزنًـا عميقًـا، رأيـت

انكسارات متتالية أنهكت روحها، وكأنها شظايا مرآة تعكس جرحًا واحدًا على كل القطع ليتضاعف ويكبر ويزداد ألمها أكثر.

رغم ذلك لم تكن لديَّ الجرأة أن أحدث جود بالأمر، كنت أخاف أن يفقد ثقته بي أيضًا وأن يخرج من المنزل ولا يعود، كان جود بحالة هشة وكأنه يحاول إعادة الثقة بمن حوله شيئًا فشيئًا، وأي غلط قد يؤدي إلى تلاشي تلك الثقة؛ لذلك حاولت الصبر، وكنت متأكدًا بأن الوحيد القادر على فعل هذا الشيء هو جاد ولا أحد غيره.

في صباح ذلك اليوم عندما اجتمعنا على طاولة الطعام، كان جود يدهن كريمة الجبن على شريحة خبز بهدوء، وجاد يضع بعض الأومليت بصحنه، وألينا تمسك الملعقة مستغرقة بأفكارها بعيدًا، وأنا أشرب قهوتي، وبعد دقائق صمت وهمس بين جود وجاد، قال جاد: " قررنا أنا وجود تأليف لحن جديد خاص." وأكمل جود: "وسنمزج ما بين الموسيقى الغربية والشرقية"، تحمست للفكرة كثيراً وكأن حماسهما قد انتقل بسرعة إليَّ وإلى ألينا التي سبقتني وسألتهما: "هل اخترتما اسمًا للحن الجديد؟"، خفض جود رأسه وكأنه يتحاشى الجواب فنطق جاد: "نعم، سنسميه لحن دمشق، وهذه فكرة جود." سألتُ موجهًا كلامي لجود: "ولماذا اخترت هذا الاسم بالتحديد؟" ابتسم

وقال: "لأننا سنستمد اللحن من دمشق، من همس ياسمينها وغزل غصن زيتونها، لحبة كرزها التي تجاوره، وصفير حمامها، ونعيق البوم، دمشق برمَّتها مقطوعة سيمفونية رائعة، ونحن سنحاول نقل تلك المقطوعة إلى الورق، ومن ثَمَّ إلى مفاتيح البيانو." تعجبت لكلامه كثيراً وسألته وأنا أغوص بأجوبته أكثر: "ولكن هل تظن الأمر سهلًا؟ فدمشق لا تُنقل على ورق، ومن الصعب تحويلها للحن." ابتسم ذات الابتسامة وقال بثقة: "معي المفتاح الذي سيفتح كل الأبواب المغلقة في وجهنا.." ورفع عصير التفاح يتلذذ به وأكمل: "مفتاح الصول." كنت واثقًا أنه سيجيب إجابة كهذه، وقلت بشيء من الاستسلام: "فكرة رائعة، وإذا واجهتكما مشكلة فأنا موجود." رفعت ألينا كأس العصير وهمست بصوت تلاشت نبرته: "بالتوفيق، واثقة بنجاحكما." كانت بحَّتها حزينة، ولم أعلم السبب، وكأنها تحولت فجأة لعجوز تجاوزت المائة منذ لحظات. كان صوتها يرتجف وينبع من الأعماق وكأنه يصل ألينا من بعيد، نظر جود لألينا وربما لأول مرة تلاقت عيونهما، هل شعر بتغير صوتها أيضًا أم كانت مجرد صدفة، ولكن طال نظره إليها حتى سقطت الملعقة من يدها على الصحن وارتفع صداها. وقف جود فجأة وقال: "لقد شبعت، سأذهب لغرفتي." وبعد قليل تبعه جاد، ابيضَّت شفتاها وتسارعت دقات قلبها: " أرأيت!"

همست لي غير مصدقة، "قلت لكِ المسألة تحتاج بعض الوقت." وابتسمت محاولًا تهدئتها وسرحت بعيدًا، وضعت نفسي مكانها.. ماذا لو كان أحد أولادي يتحاشاني ولا ينظر إلي، كيف سأحتمل هذا!

****

جود

عندما جلسنا على الطاولة صباحًا كانت أمي على يميني في نفس الكرسي الذي كانت تجلس عليه أمي دانيا والذي كنت ألتفت إليه أثناء كلامي دومًا، تحاشيت النظر والكلام حاولت أن أركز أمامي فقط حيث يجلس جاد، حاولت أن أكون هادئًا.

عندما سألت: "هل اخترتم اسمًا للحن الجديد؟" كنت سأجيب بسرعة ولكن توقفت فجأة، كان من المفترض أن أجيب أنا، ولكن كنت أخاف النظر لعينيها، أخاف أن أرى لهفتها وعطفها، حتى حبها كنت أحاول تجاهله.. في بداية الأيام كنت أشعر بها تسحب البطانية عليَّ ليلًا، ومع الوقت أصبحت أتعمَّد النوم دون غطاء لا أعلم لماذا!

لم تكن تعلم بأن نومي خفيف ولكنني أتصنَّع النوم، ولا أريد أن تعلم ذلك، ولكن اليوم وعندما تنهدت شعرت بألم داخلي، رائحتها كانت قوية، ولم أتمالك نفسي- والتفتُّ إليها، نظرت بعينها، كانت شاحبة ولكنها شفافة، سحبتني لما وراء عينها، أدخلتني إلى قلبها لأرى ما بداخله، وفجأة شعرت بأن الدنيا تدور من حولي، ونهضت مسرعًا، كانت نظرتها حزينة وكأنها ضربت بمائة سهم حتى تساقطت تلتقط أنفاسها الأخيرة، وكأن الموت بدأ من عينها.

للحظة من اللاوعي كنت سأقترب منها وأهمس لها: "أمي!" وأمسك يدها وأحتضنها، أعيدها إلى الحياة وأعيد الحياة إليها، ولكنني لم أستطع فعل ذلك أو لم أرغب، لا يزال في داخلي لوم وعتب، لِمَ فرطت بي؟! تداخلت الأفكار برأسي حتى رأيت جاد يدخل الغرفة ويقول لي: " أنت على ما يرام؟" ابتسمت وحاولت أن أبدو كذلك: "نعم، ما رأيك أن نخرج اليوم؟" خفض رأسه وقال: "سأذهب لأرى تلك الفتاة." كنت قد نسيت الأمر تمامًا: "يجب أن تعرِّفنا عليها أنا وليال." حكَّ رأسه بخجل وقال: "بالتأكيد، ولكن يجب أن أتعرَّف عليها أنا أولًا." ضحكتُ وقلت: "لا تنسَ أن تسألها عن اسمها وعمرها"، "سأفعل ."

جميلة هي مراحل الحب الأولى، ما قبل الاعتراف به، وكأن كلمة "أحبك" تكون نقطة تحول في العلاقة.

****

جاد

خرجت من المنزل بعد إلحاح طويل من جود بإيصالي، مشيت بهدوء رغم الصخب بداخلي، كنت أمشي عكس رغبتي السريعة الجامحة.. دخلت نفس الشوارع التي مررت بها البارحة، والتي تبسمت لي ولخطواتي الفاضحة وكأنها استطاعت تمييز التحول الذي طرأ بين يوم وليلة، أربعة شوارع يليها زقاق ضيق وسبع شجيرات ياسمين، قطفت إحداها كما فعلت البارحة، ولكن ياسمينة اليوم كانت محظوظة أكثر لكونها ستُهدى لفتاة على شاكلة دمشق وتنبُت على يدها.

كانت تقف في نفس المكان تمسك كوبًا من القهوة الساخن يتكاثف البخار فوقه ليشكل فراشة تشبهها، اقتربت أكثر، رفعت رأسها والتقت أعيننا وسبقتنا بالكلام والغزل، كان وجهها شاحبًا وكأنها لم

تنم البارحة بما فيه الكفاية، لم تزين وجهها وكأنها لم تواعد أحدًا اليوم.

ابتسمت وقلت: "اشتقت إليكِ." ردت ببحَّة تميزها عن سائر البشر- وترفعها: "لا تراوغ بالكلمات." أجبت بشيء من قلب الجُمل: "اشتقت لهذا المكان." اقتربت منها وهمست: "هذه لك." وقدَّمت لها ياسمينة بيضاء، حمرة خفيفة اعتلت وجنتيها وكأنها لا تكبر بعاصمة الياسمين، "شكرًا" كانت بخيلة حتى بشكرها وبكلماتها، سخية جدًّا بصمتها، تحدَّثنا قليلًا وعشقتها كثيرًا، وعند رشفتها الأخيرة قلت: "إلى متى ستبقين مجهولة!"، "ربما إلى الأبد." وأضافت ثلاث نقاط بصمتها "متى سأراك؟" سرحت قليلًا وأضفت لأخرجها من حالتها تلك "أرغب بالتعرف على لوحاتك." قالت بعد تنهيدة أخيرة "ببداية الشتاء." قاسية كثيرًا بموعدها عكس البارحة، تمنيت أن تقول غدًا، ولكنها اكتفت بتلك الجملة "أين؟ ومتى بالتحديد؟"، نظرت إلى السماء وقالت: "عند أول مطر، وفي هذا المكان"، "وإن أمطرت قبل الشتاء!" أجابت بابتسامة ثقة "ستكون هدية من الله." اكتفت بهذا القدر لألتفت وأمشي خطوتين وأعود كمن نسيَ- شيئًا مهمًّا " سأشتاق

إليكِ." ودون انتظار أي كلمة أكملت طريقَي راجيًا من السماء أن تمطر قريبًا.

خطواتي ثقيلة مرتبكة تعلن خيبتي، أيّ حبٍ هذا الذي يربط قدري بغيمة، بجماد!

احتجت أن أختلي بنفسي- أعيد ترتيب ما حدث، كلماتها القليلة وحضورها الجامح وغيابها الشاحب، أوقفت سيارة أجرى، سألني: "إلى أين؟"، "إلى مكان هادئ." سلَّمته زمام الأمور، وكأنني أصبحت تحت رحمة غيمة ومقود وصمت، لم يسأل السائق أي سؤال وكأنه قرأ خيبتي، وراحت السيارة تجول بشوارع دمشق وأنا غارق بين أسئلة وضباب من المجهول، أوصلني إلى قاسيون، تذكرت المرة الوحيدة التي جئت بها إلى هذا المكان عندما كان جود هنا، وأخبرنا أبي أن جود عندما تضيق به الدنيا يختلي بنفسه بقاسيون، أكان السائق يعرف هذا الشيء أم أن قاسيون أمٌّ لكل سوري، دخلت لكافيتريا وكأنني بموعد مع القدر أو مع الصمت أو بالأصح كنت بموعد مع خيبة، كان المكان هادئًا مبطنًا بالحزن؛ فهناك في الزاوية تجلس فتاة وأمامها فنجان قهوة أعتقد أنها مُرَّة بلا حبة سكر، كانت على وجهها أثار بكاء عارم، ربما كانت تجلس على كرسي الوداع من جديد ولم تعتدْ عليه.

وعند النافذة كان يجلس رجل عجوز وأمامه شاب يتكلم بتوتر عالٍ وكأنه بمعركة، كانت تجاعيد ذاك الرجل تحمل حزنًا كبيرًا ودمعة داخل عينه جامدة، تدخلت بخصوصيات الناس لأول مرة وتأملت أحزانهم وكأنهم كتاب ذو غلاف أسود لامع، ويمر خط بنفسجي غامق دليلًا على أناقة وكبرياء الحزن، توسطت أحزانهم أحتسي الخيبة بكأس من زجاج، أنظر لدمشق من الأعلى.

كانت المنازل منتشرة وتبدو صغيرة على عكس حجم أسرارها وغموضها. اقترب النادل يسألني: "ماذا تريد أن تشرب سيدي؟" للحظة كنت سأقول مطرًا أو حُبًّا ولكن أجبت: "عصير برتقال." كان أول ما خطر على لساني وكأني أقول له: "أي شيء، فقط دعني وحدي."

أيُّ فتاة هذه المجهولة والتي ستبقى هكذا إلى الأبد! أيُّ فتاة هذه التي تربط مواعيدها بالطبيعة! بدأت أغوص بصورتها وكأنها بدت لي في البداية محاطة بدخان غموض وبدأت عيني تعتاد ذلك الدخان لأراها ممسكة بالياسمينة وبكوب القهوة الذي بدأته عندما رأيتها وأنهته قبل رحيلي بلحظة، وكأن لقاءنا كان بعمر ذاك الكوب.

ربطت شعرها بشال أحمر رقيق ولكنه جريء، لماذا اختارت هذا اللون بالتحديد! أمحض صدفة أم أنها اختارته بتأنٍّ!

مرت الساعات سريعة وأيقظني رنين هاتفي الذي كان يشبه موسيقى نهاية مسلسلٍ ما، كان المتصل جود، أجبت ولم أنبس بكلمة. " أين أنت؟" أتت الجملة مغلَّفة بقلق. "بقاسيون." أجبت وأنا أحاول نطق القاف صحيحة. "معها!"، "لا مع ذكراها." صمت قليلًا وهو يعرف جيدًا من يذهب إلى قاسيون!" سآتي فورًا، أين أنت بالتحديد؟"، أعطيته اسم الكافيتريا بعد إصراره على المجيء، وضعت هاتفي جانبًا ورفعت رأسي للسماء للمرة الألف راجيًا أن تُمطر، ولكنها لم تفعل، بل كانت تزداد صفاءً كلما رجوتها..

****

ليال

أن يظهر أشخاص فجأة بحياتك بعد أن تكون قد رتبتها جيدًا وأثثتها بإتقان وتلاعبت بفن المساحة، حيث لم تبقِ مساحة فارغة لأحد إلا ووضعت بها قطعة أثاث كلاسيكية، سيقلب حياتك رأسًا على عقب كزلزال قد جاء فجأة ليدمر ويحطم ويشوه شيئًا ما بحياتك.

لم يكن من السهل على جود بأن يتقبل تلك الحقائق المفاجئة كسكين حادٍّ يمر على شفتيه ويجب أن يتقبله دون زمٍّ شفتيه حتى، أو دون أن يتأوَّه، بالطبع لم يكن من الممكن فعل هذا، ولكن أفرغ جود أثاث حياته لجاد وكأن كل السنين التي مرت وهو يخطط لحياته ويرسمها بإتقان لا شيء أمام وجود أخيه - توأمه - ليصحّ التعبير، في بداية الأمر شعرت بالغيرة من جاد، لأنه أخذ الجانب الأكبر من قلب وحياة جود، حتى ذات مرة اعترفت لجود بذلك، كنا في مكتبة أبتاع بعض الكتب والروايات حيث همست لجود: "أنا أغار." نظر إليَّ وهو يمسك بيده كتاب الرجال من المريخ والنساء من الزهرة، وقال: "ممَّن!" سحبت الكتاب من يده أتأمل عنوانه وقلت وأنا أهرب بنظري إلى الكتاب وغلافه الأخضر: "من جاد." اقترب مني ومسك كف يدي وكتب بإصبعه (مجنونة) ورفعها على أنفه واستنشقها قليلًا وطبع عليها قبلة حفرت كف يدي وأصبحت تلازمني حتى الآن وربما إلى الأبد، حينها تحولت تلك المشاعر من غيرة إلى فرح، بكلمة لم ينطقها بل كتبها وقبلة لم يضعها بل حفرها.

أصبحت سعيدة من أجله وأنا أراه يغوص بأخيه أكثر ويتعلق به، وما الضير في أن أراه سعيدًا، بالعكس تمامًا يجب أن أسعد بهذا الشيء وأن أتخلى عن الأنانية.

في البارحة اصطحبني جود إلى حفل موسيقي رائع وكان مشدودًا بالحفل حدّ الانصهار الروحي، وكأن هناك ترابط بين روحه والموسيقى، ترابط لا يفهمه إلا الموسيقيون، كانت الموسيقى تروق لي كثيرًا، ولكن كمستمعة وأخاف أن أجتاز تلك العتبة التي تفصل بين المستمع والعازف، أخاف غموض الموسيقى وجنونها وعالمها المظلم والأعمى.

عندما أوصلني جود إلى المنزل وقبل أن أغادر سيارته ومحيط عطره اقترب مني، توقفت أنفاسي فجأة أحرقتني نيران أنفاسه، شعرت بأنه سيقبِّلني من خدي، ولكنه وضع شفتيه الملتهبتين على رقبتي ليترك بصمته لأول مرة على جسدي، ظننت بأن شفتيه التصقتا برقبتي وأن من سيرى رقبتي سيراها، دخلت المنزل بهدوء بخطوات خائفة وكأنني المتهم الذي يدخل مكان الجريمة ليزيل الأدلة التي نسيها، خلعت الكعب الأسود بسرعة وكأنه دليل يدينني في لحظة ما، وشاهد أخرس على تلك القبلة التي تعتبر (جريمة)، وارتديت ذاك الحذاء الوردي على شكل أرنب، وكأنني حولت نفسي بسرعة من امرأة عاشقة إلى طفلة بريئة لا تفقه بالحياة سوى اللعب.

كانت مشاعري تلك الليلة متأججة، كأنني أحتسي خمر الحب على شاطئ من النشوة، تملكتني رغبة ملحة بأن أكتب؛ لكوني قارئة نهمة ومفعمة بالكلمات أردت أن أخرج أحاسيسي على ورق ولكنني خفت أن تلتصق رائحتي على الكلمات وأن ترتديني وتفضحني أمام أي قارئ؛ لذلك تجنبت ذلك، تجنبت ترك البصمات، خفت أن تعريني الكلمات أو تلتصق على جسدي لتظهر مفاتنه أمام كل رجل عابر.

كيف تستطيع قبلة كهذه إدخالي بحالة من اللذة وإثارة عاطفتي ومداعبة قلبي بهذه الطريقة! الحب هو مجموعة أغشية بكارة، ولذة الأشياء تكمن في تلك المرة الأولى حيث ينفض أحد أغشية البكارة تلك، كأول كلمة أحبك، وأول قبلة، وأول لمسة يد، وأول محادثة تليفونية، وأول ذهاب إلى السينما.. وما إلى ذلك.. يجب التلذذ بها لأنها لن تتكرر؛ فستفقد رونقها مع الأيام، أو على الأقل ستفقد لمعتها وتصبح كأشياء مكررة اعتيادية تحدث باستمرار.

لم تمر تلك الليلة مرور الكرام، كنت بحاجة لموهبة الرسم لأرسم تلك القبلة، وموهبة كتابة لأكتبها بتفصيلها وبصفحات، وموهبة نحت لأنحت لها تمثالًا، ولكنني كنت ثملة، أثملتني تلك القبلة، أخذتني لعالم مختلف تمامًا، جعلتني أتراقص كزهرة حمراء ناصعة تتراقص للشمس،

جعلتني أغنِّي، غنيت ورقصت وبكيت، جسدت تلك القبلة بمشاعر، قضمت تفاحة حمراء شهية وتلذذت بها، كان لها طعم مختلف وكأن التفاح رفيق الشهوات...

رنّ هاتفي ليعلن استقبال رسالة جديدة، كانت من كلمتين: عند الساعة الرابعة والدقيقتين، أمدَّتني بعمرين وبنشوتين، حملت معها مساحة بياض مليئة بالكلمات والغزل والاعترافات الصامتة: "لم أَنْسَكِ."

زارنا النوم كغيمة مخملية، رشَّ علينا من رشاته السحرية لتتكرر تلك القبلة في أحلامنا وكأنه كتب علينا الفرح مرتين.

****

جود

أصبحت أخاف على جاد من ذلك الحب الغامض، من تلك الفتاة الغريبة والتي كما يسميها شهية بالحب، ولم تكن إلا مجنونة تتراقص كفراشة على مشاعر جاد..

أيَّ حبٍّ هذا الذي يربط المواعيد بالمطر! وكيف لها أن تكون بهذا التأني والصبر والتلذذ، وهي تلعب بالنار دون أن تحترق، تراقص الأعواد بأصابعها وتقضم جمرة ملتهبة دون أن تشعر بألم أو احتراق! كان حال جاد يسوء وهو ينتظر المطر ويتظاهر بلا مبالاة كاذبة، والأيام تمر وهو على نفس الحال عند نافذة الغرفة أو في حديقة المنزل.

ذات يوم كنتُ أريد أن أخبر أبي بشيء، أسرعت إلى غرفته وجدت الباب مفتوحًا، اقتربت بهدوء، كنت أسمع صوت نحيب، لم يكن موجودًا بالغرفة، بل رأيت أمي تقف عند النافذة تُمسك بيدها صورة لي ذات إطار أسود مخملي وتبكي بشدة. تأملتها للحظة دون أن ترمقني،كانت ترتدي فستانًا أبيض طويلًا منزليًّا تزينه بعض الزهور الوردية، كانت مَن أضاف الألوان في حياتنا؛ فنحن قلَّما نرتدي غير الأسود، بالرغم من أنها بهذه اللحظة أشدّ منا حاجة للأسود ولحداد طويل..

رفعت شعرها بطريقة استفزازية دليلًا على شموخها وهي تبكي، كانت متناقضة، ولكن لأول مرة أشاهد شبهًا كبيراً بيننا.. لون شعرها ولون عينيها وشموخها رغم انكسارها، هذه الحقيقة آلمتني قليلًا،

مـرت نسـمة خريفيـة بـاردة وسرَت بـداخلي تحثنـي أن أدخـل إليهـا وأمسح دمعتها، ولكن لم أفعل، دمعت عيني فجأة، التفتُ لكيلا تـراني أو تحمل تلك النسمة رائحتي إليها، وتوجهت لغرفتي، ولكنها لم تغادر تفكيري ذاك اليوم، حتى عندما جلسنا على مائدة العشاء عندما زينت وجهها بالقليل من المكيـاج وكـأن شـيئًا لم يحـدث، ورسـمت ابتسـامة خفيفة كشمعة على هذه الطاولة تبث الطمأنينة داخلنا، كـان شـعرها ما زال مرفوعًا بذات الشموخ لتتوسط رقبتها الشفافة قلادة بنفسـجية لامعة تنعكس على وجنتيها.

كان للحزن طقوس كالعبـادات؛ فبعـد جلسـات البكـاء والاعـتراف الصامت بالانكسار تتغير ملامح الشـخص وتـزداد حـدة ودقَّـة، أصـبح أنفها حادًّا رقيقًا وشفتاها مذمومتين كحبة كرز خمرية، وكأنها شربـت خلًّا، وعيناها بدتا أدكن كعمق المحيطـات الزرقـاء المائلـة إلى البـترولي اللامعة.. تأملتها بثـوانٍ خاطفـة وحاولـت أن أتصـنَّع الهـدوء وأبتسـم لجاد بين الدقيقة والثانية كأن لا شيء يحدث.

تشاركوا بمواضيع كثيرة لم أسمع منها سوى بضع الكلمات وأنا أفكر بها وبي وبالماضي، ذاك الذي شهد جريمة كنتُ ضحيتها وها هـو وبعـد سنين يعيد فتح القضية وبعثرة أوراقهـا، تمنيـت أن أسـمع منهـا عـذرًا

واحدًا وهميًّا لاحتضنها وإن كان كاذبًا، عاطفة قوية تشدني إليها لنشكل معًا أسرة متكاملة، أريد أن أغوص في محيط أمومتها، أن أقبِّل يدها ولو لمرة..

أخبرت ذات مرة عمي خليل بذلك، سرح قليلًا وقال وكأنه يقرأ من كتاب لا يراه إلا هو: "إن كنت غاضبًا من شخص ما، حاول أن تجد له عذرًا وهميًّا وصدِّقه." صمت قليلًا وأكمل: " ضع نفسك مكانه وفكر أن كنت ستقع في ذات الخطأ أم لا"، سألت نفسي بعدها مرارًا ماذا لو كنت مكانها، حاولت أن أعيش أحداث القصة كما سمعتها بكوني هي، وحاولت وضع جملة قالها لي جاد ذات يوم بعين الاعتبار، "في أوروبا الحياة مختلفة عن سوريا، فالعلاقات هناك أخف ارتباطًا.. حيث كل إنسان يفكر بمصلحته أولًا وينفصل الابن عن والديه عندما يكبر قليلًا ويصبح لا يراهم سوى في المناسبات "، أكان المجتمع شريكًا أيضًا، وضغط عليها ومجتمعنا أيضا ليس أفضل منه عندما طردها لكونها فقط غريبة دون النظر لجوهرها، والظروف القاسية والعمر.. يجب النظر إلى العمر أيضًا فكل هذه ظروف تؤثر بشكل أو بآخر بما حدث.

تشتتت أفكاري وأصبحت تدور حول محور واحد ونقطة معينة هي لماذا! سؤال يلف حوله العديد من إشارات الاستفهام والأسئلة المبطنة.

****

جاد

بخيلة هي السماء هذا العام، وكأنها أرادت تجريدي من كل شيء واستسلامي التام للقدر والغيم، ولكنني لم أفعل، بقيت في البداية أذهب كل يوم إلى مكان لقائنا، أنتظر هناك لأجد خيبة مغلفة برائحة الياسمين وعطش المطر، كنت أتخيلها بنفس المكان، أحاول استنشاق عطرها قبل أن يتلاشى كما تلاشت، وأحاول أن أحنط المكان والياسمين والحجارة وعبق الشام.

مر شهران، بطيئان جدًّا، مميتان جدًّا والسماء لم تمطر قطرة ماء واحدة، حفظت غيوم دمشق عيني وتفاصيل وجهي، ولربما كنت أكثر الناس نظرًا إليها، بدأت حياتي الجامعية، وبدأت أتعرف على مرحلة جديدة وأناس جدد، وأبحث بينهم عن تلك التي عشقت، بين عيونهم

وروائحهم وبحات صوتهم، ولكن لم أجد شيئًا سوى الخذلان من جديد.

في اليوم التاسع من شهر تشرين الأول بينما كنا أنا وجود بغرفة البيانو نؤلف اللحن ونجربه ونعيده مرات ومرات، سمعت صوتًا أحياني بعدما أماتني هجره، في تلك اللحظة الوحيدة التي لم أنتظر فيها المطر.. تساقط، وكأن القدر لا يأتي إلا عندما ندير له ظهرنا، تسمرت أصابعي على البيانو بينما جود كان يعزف بصوت المطر، بعد ثوانٍ نظر إليَّ: "ما بك؟"، " أتسمع؟ " قلت غير مصدق "ماذا؟"، "المطر!" نطقت تلك الكلمة وكأنها ثقيلة وشهية على اللسان، وكأنها مُرَّة ولذيذة في ذات الوقت وكأنها عصير جوافة وردية حامضة وحلوة، " وأخيرًا " قالها جود بتنهيدة يشاركني تلك الفرحة، وأسرعت لغرفتي،

ارتديت طقمًا أسود احترامًا للمطر ولقدسية ذاك الموعد، وأخذت معطفًا ثقيلًا من الشموخ، كان به ستة أزرار، بكل زر قصة كبرياء، تركت الأول مفتوحًا، وكأنها كسبت جولة الكبرياء الأولى، وأسرعت تحت المطر.

كانت الساعة السابعة مساءً، وكان المطر غزيـرًا، بللنـي وأسـعدني "هل سأجدها هناك!"، "ماذا لـو نسـيت الأمـر! أسـئلة كثـيرة حملهـا المطر إليَّ بينما كنت في ذاك الطريـق اللعـين الـذي يفصـل بينـي وبـين الـوهم، بـين الواقـع والحلـم، وهـا هـي حُلمـي تقـف في ذات المكـان ممسـكة مظلـة حمـراء، لمـاذا حمـراء مـرة ثانيـة! لا يهمنـي الآن، دون مرسم ودون حبر وورق، فقط فتاة الـورق أمـامي تخـاف المطـر لأنها خُلقت من حبر، والحبر والماء لا يجتمعان.

وصلت إليها وأخيرًا، همست وأنا ألهث: " أخـيرًا أنـتِ!" ابتسـمت وقالت: "أخيرًا المطر"، "كـم كنـتِ قاسـية كغيمـة آب!"، تجاهلـت مـا قلت واقتربـت وهمسـت: "ألا تريـد أن تـرى لوحـاتي؟" هـززت رأسي، وأمسكت يدي ومشينا، زقاقين وبعدهما خمسة منازل..

كانت الشوارع خالية إلا من العشاق، وكـأن المطـر يثـير شـهوة حـبهم وعشقهم، دخلنا من ذاك الباب القـديم الأسـود واتجهـت وراءهـا إلى إحدى الغرف وأنا أتأمل المنزل قلـيلًا، ويبـدو أنـه لا أحـد فيـه سـوانا، وثالثنا الحب.

دخلنا ذاك المرسم حيث تقضي جُلَّ وقتها، رأيتها على ضوء تحت فانوس العشق، كانت مرتدية بنطال جينز أسود وقميصًا أبيض ملطخًا بالألوان، ربما زادت جماله جمالًا، شعرها مرفوع مثبَّت بقلم طويل، ووجهها دون نقطة مكياج، يبدو أنها كانت مستغرقة بالرسم قبل أن ينهمر المطر؛ فها هي طقوسها أمامي وكأنها وسط معركة حبرية جديدة،لوحات متناثرة في كل مكان، بعضها معلق على جدران وبعضها متكئ على بعض، وبعضها مغطًى بغطاء أسود، وأخرى مثبتة على المرسم، لا بد أنها الثورة الجديدة التي ثارت بها ليالي طوالًا، لا بد أنها سبب السواد تحت عينيها، السبب بإنقاص وزنها ولا بد أيضًا أنها سبب بقائها متوازنة إلى الآن.

كانت تتنفس من اللوحات، كل لوحة ترسمها أو ترتسمها كانت تأخذ جرعة من الحياة تبقيها معها لبداية لوحة جديدة.. لبداية جرعة جديدة.

كانت بفوضوية الفنان، كل شيء فوضوي مثير.. اللوحات المبعثرة والألوان وملامحها الفوضوية ودواخلها أيضًا، نظرت إليها وهمست: "كل رسام يحمل قدرًا لا بأس به من الجنون" ولربما هذا ما يوصله لحد الفن، لحد الإبداع والانصهار ما بين لوحة وفنان، ما بين عشيقة

عذراء ورجل وسيم، كان الفنان يمارس الحياة مع تلك الورقة البيضاء العذراء ويبعثر فوضويته عليها ويقمعها لتصبح شبيهة له، كان يجب على الرسام أن يغيب عن الوعي وينتقل هو وريشته والورقة إلى اللاوعي، يصرخ ويثور ويملأ الورقة بجنونه لتصبح لوحة متكاملة أنيقة مجنونة، اقتربت لأراها أكثر، من خلال الرسوم (فالكاتب يُقرأ من صفحاته والعازف يُسمع من ألحانه والرسام يُرى من لوحاته) وصلت عند أول لوحة كانت باللون الأحمر ودرجاته بينها رمادي وأرجواني، خفضت رأسي لزاوية الورقة أبحث عن توقيع يدلني على اسمها، ولكن لم تكن موقَّعة، انتقلت من لوحة إلى لوحة بحثًا عن الهدف نفسه ولكن جميعها دون توقيع! أي جنون هذا الذي يجعل رسامًا يُبدع ولا يأخذ أبسط حقوقه بتوقيع على جسد اللوحة، وهو الذي شكَّلها بيده وأفقدها عذريتها بريشته؟

"من أنتِ!"

سألتها وقد فرغ صبري من الغموض، ابتسمت وهي تقف أمامي مباشرة: "عندما نتعرى من المجهول ونرتدي الحقيقة نصبح قابلين للتلاشي، أنا فتاة الاستفهام." لم أكن أعلم أن كلامها مبطن بتهديدات، أو ربما لم يهمني الأمر تلك اللحظة، "ما اسمك؟" سألتها بإصرار،

قالت: "كان جديرًا بك أن تسألني: ماذا كنتِ ستسمين نفسك؟" ابتسمت وقلت: "فليكن." اقتربت مني أكثر وأنفاسها قبلت أنفاسي مع ترك مسافة، كما هي دومًا "إن كان اسمي الذي اختاروه فهو حلا، وإن كان الاسم الذي كنت سأختاره لنفسي فهو غزل"، نظرت لعينيها مباشرة أحاول جعل صوتي متزنًا "ولكن اسمك جميل، ظننته غير ذلك," وضعت إصبعها على وجهي ومشت به قليلًا بجوار فمي كما تمشي دومًا جوار الأجوبة ولا تصيبها "هل يكون الجمال اسمًا؟ " راح صوتي يتلاشى "ولكنك كذلك."

"ربما كنت جميلة وأشبه اسمي حلا، ولكن كنت أتمنى أن تكون صفة أستحقها وليس اسم فُرض على الآخرين"، "وماذا عن غزل؟" "غزل اسم أغلب لوحاتي؛ فأنا رسامة تُطلق اسمًا واحدًا على جُلِّ لوحاتها؛ ولذلك أصبح الاسم يلبسني. عندما أكون في المرسم وبين الحبر والورق أكون غزل"، "أول مرة رأيتك فيها كنتِ ترسمين؛ لذلك سأناديكِ غزل."ابتعدت عني فجأة وكأن شيئًا ما قد حدث، وأمسكت ريشتها وملأتها بالحبر الأزرق وراحت ترسم وكأنها أخذت من أنفاسي فكرة أو مشهدًا. "كم عمرك؟"، "أسئلتك تشبه أسئلتهم كثيرًا، لا تغرق

بالأسئلة الغبية؛ لأنك لن تستطع الخروج منها، ولا تُكثر الأسئلة يا فتى، ألم تقل أحلام مستغانمي: (الأسئلة لا تزيدك إلا تورطًا عشقيًّا.)"

"ولكن ما الضير في ذلك؟!"، سرحت وكأنها تسأل نفسها: حقًّا ما الضير من تورطنا العشقي، أو ربما استحضرت مشهدًا قديمًا أو ذكرى "أُحَذِّرك من التورط." وأكملت: "فلتقل عمري بعدد لوحاتي."

كم غرفة يجب أن أجول لأحسب لوحاتها؟ وهل لوحاتها تقتصر على الورق! أم أنها ترسم بفوضوية في كل مكان، ربما كانت حجارة شارع الحي لوحات لها وشهدت حبرها، أو حائط غرفتها أو ربما قلوب الرجال الذي سبقوني وراحت تُبدع الرسم والتشويه والتفنن، شخصيتها غامضة وماهيتها مجهولة، لا أعرف سوى اسميها وكمية عطر وإشارات استفهام، صمت طويل توسطنا، هي ترسم بكل حواسها وأنا أتأمل، شعرت بأن عليَّ الذهاب، اقتربت منها وهمست عند أذنها تمامًا: "متى أراكِ؟" شعرت بقشعريرة تسري بجسدها ودون أن تنظر إليَّ همست بذات الوتيرة والرجفة: "بعد عشرة أيام، فليكن في قاسيون بمطعم لامونتانا عند السادسة عشقًا."

عشقًا! أي توقيت تستخدم! وهل هي ذات السادسة مساءً! ولمَ بعد عشرة أيام! ولكن من انتظر شهرين لن ييأس بعشرة أيام. رفعت القلم لينسدل شعرها بعفوية مثيرة وقلت: "هكذا تبدين أجمل." وخرجت ومعي جوابين وألف سؤال ورغبة عارمة بامتلاكها..

****

ألينا

مرت الأيام وحملت معها الشهور وما زلت أقف عند نقطة البداية تلك، ما زلت منبوذة رغم كل محاولاتي وندمي، ولكن جود لم يسامحني على تلك الجريمة التي ارتكبتها.

أتمنى أن يعود الوقت للوراء؛ لما كنت تخليت عنه لحظة، فكيف لي أن أتخلى عن قطعة مني، رباه! كن معي؛ فأنا بأمسِّ الحاجة إليك، أشعر وكأن مهمتي قد انتهت وأنه لم يعد لي مكان هنا، ضاق هذا المنزل عليَّ وكرهت دور الهامش الذي أخذته لنفسي، وكأنني روح لا تُرى تحيط بهذا المنزل وبهم.

في مساء شتوي ثقيل كان يزن وجود وجاد حول الموقدة يشربون قهوة ساخنة تخفف من البرد، كانوا غارقين بكلامهم، يتحدثون عن مباراة انتهت منذ قليل والحماس ظاهر عليهم وصوتهم مرتفع، كان جاد يصرخ: "الحكم غشاش." ويبادله جود: "اقبل الهزيمة يا فتى." اقتربت منهم أحمل بيدي كبرياءً ممزقًا وبيدي الثانية حقيبتي التي أتيت بها من موسكو، التفتوا إليَّ فجأة، ستة أعين تراقبني باستغراب ودهشة، كنت أرتدي معطفًا من الفرو الأحمر يستر انكساراتي ويقيني من برد الندم، مرت ثوانٍ لم ينبس أحد منا بكلمة، ننظر لبعض بصمت وبخذلان، سأل جاد: "إلى أين ستذهبين؟ "

اقتربت منه وأنا أحاول إخفاء دمعة ترافقني أينما ذهبت "انتهى دوري الآن." تجهَّم وجه يزن وشحب فجأة وكأنني كررت مشهدًا حاول مرارًا نسيانه، وها هو يتكرر الآن همس بصوت أقرب إلى الترجي "ابقَيْ هنا؛ نحن نحتاج إليك." نظرت لجود الذي خفض رأسه وقلت: "لا أظن ذلك؛ فأنا لا وجود لي حتى وإن كنت بينكم " خانتني الدمعة وأحرقت خدي، همست بصمت ليس كصوتي: "كونوا بخير." والتفتُّ أمشي بألم، كان لكعبي صدًى يتردد بعد كل خطوة مع صوت الصمت.وصلت إلى باب المنزل وسمعت صوتًا أشبه بصوت طفل دخل

المدرسة أول مرة ولا يستطيع الكلام "ماما لا تذهبي." ميَّزت ذاك الصوت بسرعة وبعطش، توقفت وتوقف كل شيء عن الحركة عدا دموعي التي كانت تتسابق وأنا أسمع كلمة "ماما" لأول مرة من جود، كانت تحمل في نبرتها حنانًا وحبًّا، ترتجف بعد دقيقة والكلمة تتردد في أنحاء البيت، ألتفت لأجد جود يقف أمامي لا يفصلنا سوى متران ودمعتان وتنهيدتان، عيناه تدمعان ولكن شموخ دمعه يرفض الخروج من عينيه لتصبح لامعة تتراقص مع ضوء المشهد، اقتربتُ خطوة واقترب خطوة ننظر لبعضنا بألمٍ. قلت: "جود.." كنت أحمل الكثير من الكلام والاعتذار لكنه وضع يده على شفتي وهمس: "لا تقولي شيئًا فأنا لا أحتاج لمبررات." واحتضنني بقوة، بكيت وبكى، تجاوزت دموعه كتفي واخترقته لتصل إلى قلبي وترويه، لا أتذكَّر كم بقينا، ربما أربع دقائق أو عمرًا كاملًا، كان جاد ويزن يقفان وراء جود وشاركانا الدمع بكل كبرياء، وبالأسود، كان دمعهم أسود عكس دمعي الأرجواني، كان لهم نفس الكبرياء والشموخ بالبكاء فقلما تخرج دموعهم.

جلسنا معًا، وكنت أمسح على شعر جود بين الدقيقة والثانية غير مصدقة، وأمسك يده بحنان وحاجة، قال جاد مازحًا: "أحضري

لصغيرك السكاكر أيضًا." رد جود: "أتغار؟"، "ولمَ لا؟!" وضحكنا، كانت تلك الضحكة تخرج من أعماقي ولأول مرة من سنين، ظننت نفسي أحلم وأنا أرى جود وجاد ويزن حولي نتشارك الأحاديث والمشاعر. وبدأت حياتنا تتغير؛ ففي كل صباح أعدُّ لهم الفطور بنفسي قبل الجامعة، وأقبّلهم وأتمنى لهم يومًا جميل، وتطورت علاقتي بيزن بعد ذاك اليوم وكأن كل الحواجز التي كانت قد تلاشت فجأة، كم كنت محظوظة!

اتصلت بكارولين وكنت مشتاقة لسماع صوتها، طلبت منها أن تأتي ولو لأيام، وأخبرتها بأنني قد اشتقت إليها، بكت على سماعة الهاتف وكأنها تحدِّث أمها بعد فقدانٍ وأبكتني معها، فها هي تعود وحيدة من جديد، تدخل في شرنقة الوحدة، تبكي، تتألم، وتنسج من دمعها حريرًا.

****

جاد

سعادة كبيرة تتملكني لعدة أسباب، تحسُّن علاقة جود وأمي كان أهم تلك الأسباب، فتلونت حياتنا وأصبحت ممتعة مفعمة بالحب. استيقظت اليوم على صوت أمي وكنتُ مبتهجًا وكأن اليوم عيد، فها هي العشرة أيام قد مرَّت ولا يفصلني عن حلمي سوى ساعات، جلست على الطاولة أشعُّ حيوية وحبًّا، تغيرت ملامحي حتى كادت تفضح حبي، كنت آكل بشهية، وكأن مربى الفراولة تغمزني والبيض المقلي يتراقص بصحني وكأس الحليب يغني.

أنهيت فطوري، ومرت الساعات وأنا انتظر اقتراب الساعة السادسة، بدَّلت ملابسي بهدوء وتعطرت بالصبر والشوق وخرجت من المنزل إلى موعد مع الحياة.

أخذت تاكسي وأعطيته اسم المطعم، مشى بسرعة ولكنني شعرت وكأنه يمشي ببطء بالرغم من ذهابي المبكر، تذكرت فجأة وقلت للسائق: "أريد أن توصلني إلى محل ورد أولًا." هز رأسه، وسرعان ما وصلنا إلى محل ورد، ضعت بين الورود ورائحتها الشهية، اخترت باقة ورد حمراء كربطة شعرها ومظلتها.

دخلت المطعم بشموخ وكانت الساعة الخامسة والنصف، راقت لي طاولة عند النافذة في زاوية المطعم، وضعت الورد جانبًا وانتظرت.. الدقائق تمر بطيئة ومتكاسلة من برد الشتاء، وعند السادسة تمامًا جاء النادل وبيده ظرف وقال: "هذا لك " نظرت له طويلًا قبل أن آخذ الظرف، ولكن رائحة عطرها أرغمتني على أخذه، فتحت الظرف بهدوء وفاحت منه رائحتها، أخرجت الرسالة وسقطت ياسمينة ذابلة منكمشة، تأملت الياسمينة قليلًا وكأنها كانت ياسمينة خذلان أو فراق، فتحت الورقة وبدأت أقرأ بصوت يشبه صوتها:

إلى من اقتحم حياتي..
أنا فتاة الاستفهام، ولا ينبغي أن أكون غير ذلك..
جئت إلى الوجهة الخاطئة وفي الوقت الخاطئ؛ فأنا لست للحب..
غادرتُ سوريا، ولكن سترافق ذاكرتي، كن بخير...

حلا

ذهبت كما أتت.. وهمًا، عشقًا، حبًّا، دون أن تترك وراءها دليلًا سوى القليل من البصمات العشقية والأجوبة الساحرة ومساحات من الصمت وأنفاسها!

هل التقيتها حقًّا! هل كانت هنا ذات يوم! هل كانت وهمًا أو حقيقة! تلك الفتاة التي على شاكلة وطن، ذلك الوطن الذي أعطاني هوية ومن ثم غربني وشوه وطنيتي، هل هناك شهود على هذه القضية!

أريد الحجارة أن تنطق والهواء أن يهمس وتلك الياسمينة التي كانت تضحك ربما شفقة عليَّ أو غيرة منها أن تتحدث وتقول لي إنني لم أكن متوهمًا، بل كانت هناك ذات يوم، على ذلك المرسم، وإنني حدثتها وعشقتها ولم أكن أحلم.. تلك التي تكره الأسئلة التقليدية الغبية، تلك التي تتراقص بالجواب تمر بهامش السؤال بهدوء دون أن تصيبه ودون حتى أن تلغي إشارة استفهام، بل تزيد الإشارة إشارة، أي عطر كانت تستخدم! ليتني سألتها عن اسمه، ولكن لو فعلت ذلك هل كانت ستجيب! أم ستراوغ كعادتها، أحتاج ذلك العطر لأتأكد من أنها مرت من هنا ذات يوم، لكي أملأ غرفتي من رائحته وأملأ دمشق من أنفاسه لتبقَى الحاضرة الغائبة - الغائبة الحاضرة، أريد لها حضورًا أبديًّا بعدما تلاشت، هل كانت فتاة حبر! مجرد لوحة... لوحة حملت اسمها وحمَّلتها اسمها، لوحة تداخلت ألوانها لتصبح لغزًا مثلها، لتصبح غامضة مثلها..

لن أنهار على غيابها كمراهقي العشق، ولن أتمـزَّق ألمًـا وأدَّعـي أن الحياة انتهت منذ غيابها؛ فهـي أمـدتني بحيـاة أعيشـها عـلى ذكراهـا، أعطتني شيئًا منها لأكمل حياتي على نهجها هـي، وعـلى ذكراهـا هـي، منذ اليوم أعلن أنني لوحة أخذت بكارتها وشكلتها كما تحـب ولونتهـا بعشوائية وبفن، عشوائيتها كانت ذكية حدّ الإبداع، كنت أستسلم لهـا وهي ترسمني وتلونني وكأنني ورقة بيضاء صماء، وها أنا الآن أعـيش كما أرادت لي، ذلك بعدما أنهت مهمتها برسمي.

ثلاث جلسات كانت كافية لرسمي، وها هي ذي أنهـت مهمتهـا التـي ظهرت من أجلها وأخذت ثمن اللوحة غاليًا وذهبت!

قبل ذهابها أضافت آخر لمسـة عـلى حيـاتي، رشَّـت القليـل مـن بريـق الصمت، براقًا أصبحت ألمع صمتًا في زمن كثرت فيه الثرثرة.

لقد أحببتك، أثق بذلك، وربما أحببتك لحدّ المـوت، كنـت سـأقف أمام كل العوائق ولكنكِ كنتِ العائق، كنتِ وهـمًا، مـن شـعرك البنـي حتى أصابع قدميكِ وهمٌ، كنتِ كذبة، من ربطة شعرك الحمـراء حتـى حبرك المزيف كنتِ كذبة، حبرك كالذي كنا نستخدمه في طفولتنا وبعـد

ثوانٍ يتحول لماء ويتلاشى كنتِ مثله تمامًا، ليت رسالتك حملت كلمات أكثر، ليتها حملتك بينها وبياضها الشاسع.

عدتُ إلى المنزل أسحب ورائي خيبتي ورسالة من كلمات قليلة كُتبت بحبر الهجران، أيتها النوافذ الشتوية التي تقبِّل قطرات مطر الشتاء، أيتها الشموع التي تشهد لجريمة العشق، أيتها المدن النائمة بينما الحب مستيقظ، أيها البريق، تصبحون على صمت، غفوت وأنا أتلذذ بحبة توت سوداء بشهوة وهي تقطر لتترك دليلًا على لحاف سريري، كانت كافية لإدانة تلك الليلة بأنها ليلة شاحبة.

نمت وأنا لا أريد أن يزورني الصباح ويزيل الستائر الثقيلة عن نافذتي الكسولة، أريد سباتًا شتويًّا حتى يأتي آذار (مارس)، شهر البراعم والأحلام الجديدة.

****

خليل

ذات يوم اتصلت بي ألينا وكانت تبكي، كانت بحتها حزينة ومؤلمة، تحدثت عن جود وسألتني وهي تسلمني زمام أمرها: "ماذا

أفعل؟ قل لي أرجوك." سرحت قليلًا وقلت لها بهدوء محاولًا تهدئتها: "كوني على ثقة أن بينك وبين جود خطوة واحدة." تنهدت: "أحقًّا؟" وكأنها غير مصدقة "نعم، وبادري أنتِ بهذه الخطوة." وقف بكاؤها وبهت صوتها وأصبح كلحن يخرج من الناي "ولكن كيف؟" بقينا نفكر معًا بصوت عالٍ ونضع الخيارات والاحتمالات، وفي النهاية قالت: "سأحاول ذلك، شكرًا لك جزيلًا." ابتسمت وقلت: "سأدعو لكِ، وأنا واثق بتحسُّن الأمور."

مر بعدها أسبوع قبل أن تفعل ألينا ما اتفقنا عليه، وكانت النتيجة كما توقعت وكنت سعيدًا جدًّا من أجلهم، وبدأت عائلتهم تزهو وكأنهم بستان يتراقص في مارس ويعزفون معًا لحنًا واحدًا وحبًّا واحدًا.

****

حلا

وُلدت بقرية ريفية بضواحي حماه، وكان أبي يردد دومًا: "حلا من منحت عائلتنا الحظ." كان شديد التعلق بتلك الفكرة، بأنني جلبت لهم الحظ؛ فبعد ولادتي بأربعين يومًا ترقَّى أبي بعمله وأخذت أمي

جائزة أدبية كانت لا تحلم بها حتى في منامها، وبدأت حياتنا تأخذ مجرى الثراء والسعادة ولكن لم تمتد هذه السعادة كثيراً، وعندما كنت في السابعة من عمري مرضت أمي واشتدَّ مرضها وبقيت شهرين ملازمة الفراش، كنت أتألم لحالها وأرفع يديّ ليلًا أدعو لها، ولكن سرعان ما انتقلت إلى دار البقاء، بقيت وأبي بهذه الحياة القاسية والمريرة.

بعد موت أمي تغيَّر أبي؛ أصبح يسهر خارج المنزل ليعود ثملًا بعد ليلة من العهر والسكر، يرتمي كقتيل في صالة منزلنا، تغيرت معاملته معي، أصبح قاسيًا جافًّا.

بدأنا نفقد ثروتنا شيئًا فشيئًا وأفقد ثقتي واحترامي لأبي، كل شيء تلاشى بسرعة، حتى ذرات الاحترام والمودة التي كنت أحتفظ بها بقلبي لأبي تلاشت عندما عاد أبي ذات يوم وكنت في العاشرة من عمري، ومعه امرأة عاهرة، كانوا سكارى يتمايلون وينطقون بكلمات غير مفهومة، ودخلا لغرفة أمي ومارسا العهر على سريرها الطاهر وفوق ذكراها.

مقتُّه في تلك الليلة، كان صوت فحشهم وحقارتهم يصل لغرفتي ليتوسَّط أذنيَّ، وضعت يدي على أذني أضغط بكل ما أوتيت من قوة لكيلا أسمع تلك الأصوات والتنهيدات النجسة.

بكيت وبكيت، كنت أبكي بلا صوت، أتألم وأئنُّ كطير ذُبح جناحاه وبقي على قيد الحياة، يشهد نزيفه ويشهد ألامه ولا يستطيع فعل شيء، أي شيء، كانت تلك الليلة من الليالي التي غيرت حياتي وغيرتني، أصبحت أكرهه وأكره تصرفاته، ولكنني كنت مجبرة على البقاء معه لأنه أبي ولن يضربني بشيء عكس بقية الناس، ولكن ثقتي لم تستمر كثيراً، ومع السنين زادت حالة أبي حتى أصبح يتعاطى شتى أنواع الموبقات، وذات يوم جاء ومعه أربعة رجال، أتذكَّر ملامحهم حتى هذه الدقيقة، رائحتهم النتنة وعرقهم على جبينهم ولهثاتهم ورائحة شهوتهم العارمة، تفاجأت بمجيئهم مع أبي، وشعرت بالخوف يَسري بجسدي، بعد أن فتحت لهم الباب أسرعت لغرفتي، بقيت ساعة ممسكة بالبطانية أرتجف وأبكي، كنت قد بلغت الثالثة عشرة من عمري آنذاك.

سمعت أبي ينادي: "حلا، حلا!" كرهت اسمي في ذاك اليوم، طال نداؤه، لم أستطع تحاشيه أكثر، ذهبت لأراهم ينظرون إليَّ بشهوة

وبقرف، كان لعاب أحدهم يسيل وكان الثاني يضغط على شفته بقوة، وكانت تفوح منهم ذات الرائحة، رائحة شهوة حقيرة، وأبي مغيب عن الوعي بينهم، بعالمٍ ثانٍ.

لم أتمالك نفسي، أسرعت لباب البيت وأخذت المفتاح وخرجت وأغلقت عليهم..

بقيت أجري وأبكي لا أعلم إلى أين أذهب! وماذا سأفعل، ولكن كان لا بد أن أضحِّي بشيء ليحيا الآخر؛ إما شرفي وجسدي أو حياتي مع أبي، ولم أتردد باختيار شرفي؛ فهو كل ما أملك، كانت ليلة شتوية، فتك بي البرد وأنا أمشي بين عتمة الليل أرتجف، كان بردًا قارسًا وجافًّا، كانت أبرد ليلة بحياتي، ابتعدت كثيرًا عن بيتنا ونمت على عتبة أحد البيوت لعلها تقيني من البرد.

استيقظت على صوت امرأة أربعينية العمر تُدعى أم سعيد، كانت صاحبة المنزل، سألتني عن سبب وجودي هنا، شعرت بالإحراج كثيرًا، قالت بلطف: "ادخلي معي إلى المنزل؛ فلا بد أنك تشعرين بالبرد والجوع." أومأت برأسي خجلًا وتبعتها بهدوء، عادت بعد قليل وأعدت لي حساءً ساخنًا أعادني إلى الحياة من جديد، سردت لها قصتي

منذ توفيت أمي إلى الآن، تحسَّرت على ما حدث معي ولعنت أبي كثيراً وقالت لي: "ماذا ستفعلين الآن؟."

سرحت بسواد الحياة وعتمتها وقلت لها: "لا أعلم، ولكنني أريد أن ابتعد عن هذه المدينة." ابتسمت وقالت: "لا تقلقي، انتظري قليلًا." ذهبت، وبعد سبع دقائق عادت وقالت لي: "عمتي تسكن في دمشق، ما رأيك أن تذهبي وتسكني معها؛ فهي تعيش وحيدة، وتحتاج لأحد لتقاسمه آخر أيامها ويساعدها في أعمال المنزل." فرحت كثيراً ووافقت دون تردد، وكأن السماء أمطرت عليَّ بهذه الهدية الثمينة، وفعلًا انتقلت إلى الشام وعشت عند ماما لطيفة، وكانت اسمًا على مسمى؛ توفي زوجها ليتركها بعد زواج أربعين سنة دون أن يُرزقا بأطفال، لم يترك لها سوى هذا المنزل الصغير الذي ضاق عليها بعد موته وأصبح كالقبر، ولكن بعد أن سكنت معها أعدت إحياء البيت وعادت البهجة لماما لطيفة، أصبحت كأمي، وبقينا معًا حتى الثامنة عشرة من عمري عندما زارنا الموت وأخذها وتركني وحيدة من جديد، كان موتها قاسيًا كموت أمي منذ إحدى عشرة سنة.

تفاجأت بعد موتها بأنها سجَّلت منزلها باسمي، تركت لي المأوى وتركتني وحيدة، تزوجت بعد سنة من موتها، زواجًا تقليديًّا عن

طريق أم سعيد.. ولكن لم يكن حظي مع زوجي أفضل من حظي مع أبي؛ فقد كان يلعب القمار ويشرب الخمر ويضربني ويشتمني..

كان في كل يوم يأتي إلى المنزل يطلب مني المال، وعندما أقول: من أين لي المال؟ ينهال علي ضربًا وشتمًا ويقول لي: "بيعي منزلك وأعطيني ثمنه"، كنت أفقد الوعي من قوة ضربه وأقول: "ذات يوم سيصبح رجلًا ذا مسؤوليات وسيتغير." أقنع نفسي بذلك وأصبر.. كان يجب عليَّ أن أصبر.

كنت أُخرج آلامي بالرسم؛ أرسم على الجدران أو على قماش السرير، وبكل مكان، أخرج كل شيء بالرسم، أبكي حبرًا، وأجعل الريشة تُظهر ألمي ووجعي، تحملت كل شيء، الإهانة والضرب والذل ورائحة الخمر، ولكنني لم أستطع تحمُّل الخيانة.

ذات المشهد يتكرر، وهذه المرة على سريري أنا وفي بيتي أنا، لم أضع يدي على أذنيَّ كما في الماضي ولم أبكِ بلا صوت، بل صرخت بأعلى صوتي حتى جفت عروقه فجأة، ودخل الجيران إثر صرختي تلك ليروهما على السرير متفاجئين وكأن حواسهما شُلَّت، كان هذا كافيًا والشهود كافون لأكسب دعوى الطلاق، والتحرر من جديد، ولكنني

كرهت الرجال.. خائنون، كاذبون، مخادعون، لم أثق بأحدهم بعد ذلك اليوم، أصبحت أعتمد على نفسي أنا دون الحاجة لرجل ليكمل نقصي؛ فأنا أنثى كاملة والنقص فيهم.

النقص بالرجل سجين شهواته.

ولكن رافضة الرجال قد وقعت بالحب، وأي حب هذا الذي يجعلني أثق برجل من جديد؟ أي حب هذا الذي يجعلني أخبر رجلًا بما مررت به بحياتي وكأنني أستعطفه وآخذ شفقته؟ لم يكن هذا ممكنًا أبدًا؛ لذلك قررت الانسحاب من جديد.

ماهرة أنا بالهروب، بالانسحاب، ماهرة أنا بالبقاء وحيدة؛ فأنثى مثلي ما إن تقع بمأزق حتى تتلاشى، هذا قانوني الخاص؛ لذلك تركت رسالة لجاد ورحلت لنقطة بعيدة عن دمشق، رحلت كما ترحل الطيور ولن أعود؛ فحلا إذا رحلت لا تعود.. حماه، والآن دمشق، أصبحتا محطتين قديمتين..

ربما أحببت جاد كثيراً ولكن لست مستعدة للحب ولا مهيأة له، ولا أريده حتى، أتألم من فراق جاد، أهون عليَّ من أن أتألم من شفقته، ربما أردت أن أقرر ولو لمرة واحدة قرارًا دون ضغط، دون

الوصول إلى خيانة وصدمة جديدة، أردت أن أكون كما تمنيت دومًا؛ شامخة أنيقة بالكبرياء مجهولة، فكيف لي أن أعطيه الحقيقة! وإلى متى سأبقى مجهولة! كثيراً ما تملكتني رغبة بالانتقام من الذكور، ولكن لم أستطع أن أنتقم منهم عن طريق جاد؛ فهو أطهر من أن يكون طُعمًا، وأصدق من أن يكون وسيلة.

2011 م

جاد

انتظرت مارس كثيراً، ظننته سيأخذ مني خيبة، وتفاجأت به يحمل خيبة بين طياته أيضًا، لم يكن مارس 2011 شهر الأحلام الجديدة وبراعم الأمل ولا بداية ربيع جديد، كان مارس شهر براعم الحرب..

خذلان مارس صعقني وأنا الذي كنت بأمسِّ الحاجة له، أخذ مني غاليتي التي وجدتها بعد سنين.. سوريا، بدأت تشتعل نيران الحرب واقتلعت معها كل شيء..

كنت أستقبل الحرب بخرس الموت!

مُنذ الرصاصة الأولى حتى الرصاصة الأخيرة هناك وطنٌ نزف، وبأيٍّ حق نزف؟! هناك أطفالٌ تحولوا من البراءة لليتم، وفتيات من عاشقة لشهيدة ومن زوجة لأرملة ومن أم لثكلى، بأيٍّ حق؟!

وكيف تكون الرصاصة سوريَّة؟! والقاتل والضحية هما الوطن! وأداة الجريمة هم أبناء الوطن! والشهود هم الدول العربية! شهود خرسٌ صمٌّ عميٌ! وكيف لقاسيون أن تكون طرفًا بهذه الحرب؟! ولياسمين أن يشهد ويسكت وينكمش! أن يتبلد..

ثورة.. إرهاب.. حرب.. نزاع.. صراع تعددت المسميات والنتيجة واحدة: دماء.. وأشلاء.. وموت!

بين حقوق الوطن المسلوب نُسيت سوريا..

كانت حربًا باردة، جرَّدت العشاق من عشقهم، والنساء من أنوثتهم، ماهرة بتحويل امرأة ذات أسرة مترابطة لرجل يحارب من أجل البقاء، بقاء أطفاله على قيد الحياة بعد موت رجل منزلها وسندها، أو بالأصح استشهاده لمجرد ذهابه للبحث عن خبز، لمجرد ذهابه إلى المكان الخطأ في الوقت الخطأ ليشهد عملية تفجيرية أو ضربًا عشوائيًّا من مصدر عشوائي، ولكن لم يكن ذلك المصدر سوى

أحد أطراف سورية؛ أي إنه قُتل على يد أخيه بغضِّ النظر عن رأيه السياسي، ربما كان ذاك الشهيد خاليًا من السياسة متابعًا بصمت، ولكنه تلاشى تحت حجارة ذاك الوطن.

ومع خذلان الوطن بتلك الحرب تذكرت ذاك المنام الذي رأيته من سنتين بموسكو، تذكرت سؤال ذاك العجوز الغريب: " أسوريا ما زالت بخير؟ " الآن فقط فهمت قصده. من كان ذاك الرجل؟ وأي رؤية هذه؟

أخبرت جود بذلك المنام وتفاصيله وأنه هو من قال لي: "اذهب إلى سوريا؛ لم يعد هناك الكثير من الوقت." نظر إليَّ جود مستغربًا وردد بهمس: "لم أعد أفهم شيئًا، كل شيء فوق قدرة تحمُّل عقلنا." ولكن مع تلك الخيبات كان هناك بريق من الأمل ينير حياتنا وهو عرس جود وليال الذي كنا نحضر له بشغف، وننتظر الصيف ليشهد ذلك العرس النموذجي، لعله يحمل في أحضانه أملًا جديدًا.

****

رامي

نستيقظ على خبر استشهاد وننام على نبأ تفجير، تداخلت الأمور ببعضها كثيراً وأصبحت حربًا استفزازية تثير فتنة الطوائف في بلد السلام، بلد الانصهار.

عجزت على فهم هذه الحرب وأنا أسمع آراء المتعصبين كل يوم وفي كل مكان، يتكلمون وكأنهم يصفون مباراة كرة قدم وليس وطنًا، ولكن فعلًا كانت الحرب مباراة كبيرة، هناك فئة من المشجعين بصمت يكتفون بالمراقبة ولا يحرِّكون ساكنًا، وهناك فئة من المشجعين ثرثارون بشدة يشجعون بصخب، ملطُّون لحد الضجر - أينما ذهبت تجدهم - والبعض يتوسط الملعب كلاعب أو ربما يخدع نفسه بذلك ولكنه بغضِّ النظر عن كونه لاعبًا أو لا فهو شجاع لمجرد وجوده بالملعب، والبعض يأخذون دور الكرة، وأحيانًا يأخذ هذا الدور الوطن ويكون تلك الكرة التي تُركل بقوة وبلا رحمة من قدم إلى قدم، موهومون بأن جائزتهم هي ذات الكرة التي تتشوه تحت أقدامهم وتبهت وقد تتلاشى.

في كل مرة أكاد أنحاز لطرف ما وأتعصب كحال أغلب السوريين، ولكن أرى مشهدًا يشلُّ حواسي ويجعلني أتراجع وأعيد النظر بكل شيء وبأهم شيء: (الحرب).

أتنهَّد وأردد لمريم: "أفضل أن أموت على فراشي، من أن أموت برصاصة سورية على يد سوري تحت مسمى الشهادة"، اتفق جود وليال على أن يتزوجا في صيف هذا العام بعد أن تنهي ليال دراستها الثانوية، اعترضت أنا ومريم في البداية لكونهما صغيرين، ولكن ألحَّ جود وأعطانا أسبابًا أقنعتنا أو أوهمنا أنفسنا بذلك، ولكننا كنا فخورين بهما وبإصرارهما وتمسكهما ببعضهما، وكنا بحاجة لفرح يغيِّر وتيرة الحزن والصدمات في طيات الحرب.

جاء آب سريعًا وزُينت سماء دمشق بأرواح الشهداء وفُرشت سوريا بسجادة حمراء كبيرة مخملية، حُيكت بالدماء والأشلاء وخذلان الأبناء!

****

ليال

أتلذذ بتحضيرات العرس كتلذذي بالحب، ألاعب الحرب وأتراقص لها لتسمح لي أن أشيد عرسًا تاريخيًّا في حضرتها، أرتجف كلما اقترب

يوم زفافي، أعيد النظر إلى فستاني وترتيبات الصالة وكل الأمور التي يجب أن تكون دقيقة ومميزة، قبل العرس بعشرة أيام كان يجب ألا يراني جود، وكانت فكرة أمي ولكنها راقت لي كثيراً؛ ليغرق بشوقه أكثر، أريده مبتلًّا بالحب.

صبغتُ نهاية شعري باللون البنفسجي الغامق وأنا أحقق أحد أحلامي المجنونة، وكان لمعانه مع سواد شعري مثيراً ورائعًا، اخترت فستانًا أسود، وهذه كانت مفاجأتي لجود، عانيت كثيراً بإقناع أمي بهذه الفكرة وهي تلحّ معترضة: "فستان الزفاف يجب أن يكون أبيض، إلا إذا كان عرس مجانين!" كنت أرد مصرَّة: "وهو كذلك، من قال إننا عاقلون؟!" لم يكن بإمكانها سوى القبول لأنها تعلم جيدًا بأنني عنيدة وأفعل ما يخطر في بالي فقط.

كان يومًا صيفيًّا يمزج ما بين أجراس الكنائس وآذان المساجد، توتر وأعصاب مشدودة ولحظات تمر بسرعة، وعند الثامنة ذهبت إلى الصالة بفستاني الأسود وشعري الممزوج بين الأسود والبنفسجي، والصليب على نحري، وتاج يزين رأسي، ومعطف من القلق شفاف يسترني ويفضح عشقي، بعد دقائق دخل جود غرفة الزينة واتسعت عيناه، وهو يراني: " تبدين رائعة!" بدأ يتأملني من شعري حتى

أطراف فستاني، وكان يرتدي بذلة سوداء مع ربطة عنق فيروزية، وتفوح رائحة دمشق منه ورائحة حب، قبَّل جبيني والتصقت رائحته بسواد فستاني، وأمسك يدي وبيدي الثانية أمسكت الورد الأحمر، وتوجهنا نتوسط الصالة أمام الضيوف وأمام عيون الحرب والحب.

جود

جاء يومي الموعود؛ يوم فرحتي التي انتظرتها وتخيلتها وعشت تفاصيلها وذبت فيها، ما أجمل أن يتزوج الإنسان بمن يحب!

ارتديت بذلتي وكان جاد يقف بجواري، ربط لي ربطة العنق الفيروزية التي اختارها لي بنفسه وأمسك العطر وأفرغه على ملابسي، وقف أمامي وقلت له: " لا تذهب للعرس." نظر إليَّ متفاجئًا وضحكت: " لكيلا تخطئ ليال بيننا، تبدو أوسم مني"، وجود جاد يخفف من توتري ويشعرني بثقتي بنفسي أكثر، وكأنه يقول لي دومًا "أنا هنا، لا تخف." كنت أشعر بالطمأنينة بحضرته.

كانت أمي تشبه الأميرات بفستانها الذهبي الطويل، وكأنها فراشة ذهبية تلمع بشدة، همست لها: "أسعد رجال الكون أبي!" حمرة خفيفة اعتلت وجنتيها بينما ضرب أبي كتفي وقال: "هيا يا عريس"،

ذهبنا إلى الصالة، توجهت لغرفة الزينة بسرعة، ما إن فتحتها حتى رأيت ليال بفستان أسود رائع، أبهرتني لحد فقداني القدرة على الكلام، كانت أجمل من توقعاتي بالأبيض، اشتقت إليها كثيراً ولكن ها هي تقف أمامي ملكةً بتاجها وخطواتها الشامخة الأنيقة، مشينا على موسيقى القدر والناس تتأملنا، كنا نشعُّ حبًّا وجنونًا، مررنا بجوار المسبح الذي تتراقص أوراق الورد على سطحه وعلى الموسيقى لتزيد جمال الصالة، همست لليال في أذنها: "اشتقت إليكِ!" خفضت رأسها وقالت: "وأنا أيضًا."

كانت ليلة رائعة، شهدت نجوم السماء على وهج الحب وغنت الياسمينة للأمل، أخذت صوت ليال لتعلو إلى حد السماء وأبدعت بصوت مخملي على إيقاع العشق.

ها هي ليال في غرفة حبنا، سرير أسود شاسع مغطًّى بالورد والشمع متناثر في كل مكان ليشهد ليلة حبنا الأولى " شهية أنتِ بالأسود، كاذب من يظن العرس والفرح لا يتلونان إلا بالأبيض؛ فالأبيض شديد الفرح لحد الحزن، والأسود شديد الحزن لحد الفرح، كان فستانك مثيراً لدرجة الحسد!" ولكن سرعان ما ارتديتها بدلًا منه فوق الورد ليشهد السرير ربيعًا أحمر بعز الصيف.

2014 م

جاد

ثلاث سنوات لم تُنهِ الحرب ولم تخفف آلامها بل كانت تزيدها التهابًا وشراسة، في رمضان السنة الماضية بينما كنتُ أتمشى في شوارع دمشق وقبل آذان المغرب بقليل وجدتُ امرأة عجوزًا تجلس على الرصيف، تجاعيدها تُخفي قصصًا وانكسارات، اقتربت منها وقرفصت وسألتها بصوت خافت: "لمَ أنتِ هنا؟"، ربَّتت على كتفي وقالت: "في ذات يوم كنتُ أمًّا لأربعة شباب مثلك." تنهدت وأكملت: "الأول استشهد، والثاني أصبح لاجئًا في أوروبا، والثالث يحارب ضد الرابع!" بقيت ملامحها جامدة "وقصف بيتي كان وراء هذا الشارع." ومدت أصبعها تشير إلى شارع بعيد، خفضت رأسي ألمًا وسألتها: "ماذا تأكلين؟" هزت رأسها وقالت: "عندما يؤذن المغرب سآكل هذه، وغدًا لا أعلم."

أخرجت من جيبها نصف ليمونة صغيرة، دمعت عيني ولعنت الحرب بسري، وقبَّلت يدها وقلت: "تعالي معي." رفضت بشموخ امرأة لا تقبل الشفقة، وقالت بصوت قوي: "سأبقى هنا أنتظر أن يأتي أحد أولادي." مسحت دمعي وقلت: "أنا كابنك"، "بَلى، ولكن سأنتظر

هنا." احترمت إصرارها وذهبت وأحضرت لها طعامًا وماءً وعصيراً، فرحت بهم ولكنها تظاهرت بعكس ذلك، وبقيت على هذا الحال شهرين وسبعة أيام؛ آخذ لها الطعام وأحيانا الدواء وأجلس معها بعض الوقت، وبعدها لم أعد أجدها، سألت عنها كثيراً ولكن لا أحد دلني على طريقها، ربما وجدت أحد أولادها أو لحقت بابنها الشهيد، لم تحزنني فكرة موتها ولكن ما أحزنني حقًّا هو أن تكون قد ماتت على يد أحد أبنائها المقاتلين، برصاصة أو تفجير أو ما إلى ذلك، أو بيدهم جميعًا.

قبل أسبوع عزفنا أنا وجود لحن دمشق لأول مرة، في مسرح الموسيقى، ونُقل على عدة قنوات تلفزيونية والراديو وقنوات التواصل الاجتماعية، كنت فخورًا بهذا العمل؛ ولا سيما أننا جلسنا معًا على ذات الكرسي الجلد الأسود وانصهرنا بالبيانو أمام مئات الأشخاص وكأن لا أحد سوانا في هذا المكان، كنا نُخرج دواخلنا كلها ونعزف بإحساسنا وألمنا؛ لأن دمشق لم تكن سوى كتلة من الأحاسيس والمشاعر والدمعات والآهات..

تراقص الدمع بعينينا ونحن نعزف، كانت صور دمشق تمر أمام أعيننا من شموخها حتى انكساراتها منذ رأيتها أول مرة حتى اليوم،

كان بأذنينا صوت رصاص وتفجيرات وصراخ وبكاء أطفال واستنجاد، أضافت للحن مصداقية وشفافية ليبدو لحن دمشق بما تحمله الكلمة من معانٍ ومن أحاسيس، تجردنا من كل شيء قبل أن نتحد مع البيانو، كانت أصابعي تتحرك بمفردها وكأنها حفظت اللحن. وفي النهاية توقفنا لنرى الصورة الأخيرة لدمشق.. مئات الأشخاص يقفون ويصفقون لنا بحرارة، بعضهم بكى وبعضهم ابتسم بشغف وبعضهم تجرد من المشاعر وحضر لمجرد هدف شخصي في نفسه.

ليال

قبل سنة سافر والداي إلى ألمانيا؛ فقد وجد أبي فرصة عمل جيدة هناك، وشعرت باليتم فجأة، كنتُ متعلقة بهما كثيراً، ولكن هذا حال السوريين، لم تبقَ عائلة مترابطة كما كانت؛ فهناك مَن فقَد شهيدًا أو مغتربًا أو مفقودًا لا يعلم عنه شيئًا، وهناك من فقد الأمل!

ولكن انتظاري لطفلي الأول هوَّن عليَّ كل شيء؛ فعندما تكونت حياة بداخلي شعرت بقيمة الفرح، فها هو طفل صغير يبلغ ستة أشهر داخل رحمي، يكبر ويلهو وكأن لا شيء يحدث، كنت أحسده أحيانًا وأتمنى لو أنني بقيت طفلة أو رضيعة لكانت الحياة أسهل وأجمل،

كان الحفيد الأول للعائلة والجميع ينتظره بلهفة وشوق ولا سيما عمي يزن.

اليوم كنا على طاولة العشاء نتحدث ببعض الأمور التي تتخللها السياسة دومًا، أو عن أخبار بعض الأقارب حين رنّ الهاتف وأجابت الخادمة، وبعد قليل قالت لعمي: "أستاذ يزن اتصال لك." ذهب عمي وغاب قليلًا وهو يتحدث وبعد قليل عاد إلى كرسيه وقال لنا: "هذا صديق قديم لي يدعونا لحفل زفاف ابنته يوم الخميس القادم وألحَّ على حضورنا." سأل جود: "من هو؟" رد عمي: "مصطفي والد لمار التي حضرنا عرسها منذ سنوات، أتذكر؟" قال جود بلهفة: "أتلك الفتاة التي تزوجت برجل يكبر أباها؟" هز عمي رأسه: "نعم، ولكن سمعت أنه توفي بعد فترة من زواجها." تنهَّد جود وقال: "ما ذنب تلك المسكينة؟! كانت ضحية صفقة مادية بين أبيها وذاك الرجل." قال عمي: "هناك من لا يفكر إلا بمصلحته ولو كانت على حساب أبنائه." كنت أستمع لحديثهم بلهفة، وأحزنتني قصة تلك الفتاة وتدخَّلت: "يجب أن نذهب لعرسها، حزنت عليها." نظر لي جود وقال مبتسمًا: "لنشهد صفقة جديدة"، واستمر الحوار عن لمار وأبيها، وقالت ماما ألينا: "يجب أن نُحسن نفسيتنا بجرعة من الفرح، فلنذهب."

وجاء يوم الخميس سريعًا، أصبحت الأعراس في سوريا بعد تأزُّم الحال تبدأ عند الساعة الرابعة لتنتهي عند السادسة بعد أن كانت تتجاوز منتصف الليل بساعات؛ لذلك لم يكن معنا وقت كافٍ، ارتديت فستانًا أبيض طويلًا، وظهر بطني، اقترب مني جود وهمس: " هل بطتي جاهزة؟" صرخت محتدة: "لستُ بطة! " قبَّلني من خدي وقال: "أجمل بطة في الوجود." وأمسك يدي: "أساعدكِ سيدتي!" وضحك، تأففت: " هيا، لقد تأخرنا."

تزيَّنَّا للعرس وكأننا نتزين لقدَر ما، فكانت ماما ألينا مرتدية فستانًا زيتيًّا لركبتها، ورفعت شعرها الأشقر، وارتدت كعبًا أسود عاليًا، جاء صوت عمي وهو يقول: "هيا سنتأخر!" قلت له: " أهناك عرس يبدأ الساعة الرابعة؟"، " وكأنكِ لا تعيشين في سوريا!"

ذهبنا للعرس ودخلنا تلك الصالة، لم يكن هناك الكثير من المعازيم، وسمعت امرأة تقول لامرأة أخرى: "سمعت أنهما يدرسان الحقوق." ردت الثانية: "وعاشا قصة حب قبل أن يتزوجا." قالت الأولى: "وكأننا نعيش في أوروبا. " فهمت من كلامهم أن لمار قد تزوجت مَن تحب أخيراً، وسعدت من أجلها كثيراً رغم عدم معرفتي بها.

مرت الدقائق ولم يدخلا إلى الصالة، وبدأ الناس بالذهاب شيئًا فشيئًا، قال جاد: "لمَ تأخروا؟" رد جود: "انتظر قليلًا لنرى"، أصبحت الساعة السادسة وسمعت النساء يتهامسن بأن تيم قد تخلى عن لمار، وبعضهن تقول: "لن يتزوج أرملة." وطال كلامهن، ماهرات النساء باختلاق الأحداث وتصديقها؛ فهن مَن كذب الكذبة وصدَّقها. بعد قليل دخلا: لمار وتيم بكل شموخ وكبرياء، رأسهما مرفوع، آثار كحل لمار على خدها، وعيناها حمراوان، وتيم على قميصه بقعة دم ولكنه شامخ.

كانت جميلة جدًّا لمار، أبهرتني بساطتها ورقي حزنها، وتيم أيضًا كان إنسانيًّا، لامعين في وسط الصالة. بكل أناقة اقترب تيم وهمس للمار وابتسمت لمار ابتسامة خجولة مخملية وهمست له أيضًا، أصابني فضول فجأة لأعرف ما يدور بينهما، وماذا يتحدثان. بعد دقائق قليلة خرجا تيم ولمار من الصالة؛ فالوقت تأخر، مشينا وراءهم نراقب لمعان حب غامض يمشي أمامنا، ودارت بي الدنيا فجأة وتداخلت الأصوات، حدث كل شيء بسرعة دون أن أرتب ما حدث، صوت تفجير هزّ الصالة ومن فيها، أشلاء في كل مكان وشظايا في كل مكان، صرخة ماما ألينا أيقظتني لأرى جود يهز أباه ويصرخ، وألينا

تقف تكلم جاد، لم أفهم ماذا حدث! فهل كان الموت هنا منذ دقائق؟ في هذه الصالة وشهد العرس معنا ليأخذ أشخاصًا ويرمينا في بحر الحزن فجأة؟ هل مات عمي يزن حقًّا! هل مات جاد! كيف ذلك!

أسئلة كثيرة مرت برأسي وأفقدتني الوعي والقدرة على الحركة، شُلَّت حواسي لأرى ماما ألينا تسقط على الأرض غائبة عن الوعي، هل ماتت هي أيضًا!

****

يزن

توسط تيم ولمار صالة الزفاف بعد تأخرهما، كان تيم كمن خاض حربًا مع موت ومع حب، كمحارب أنهكت الحرب قواه ورمته بهذه الصالة لتشيع جنازته بعد ذلك التفجير، سمعت صوت ذلك التفجير بأذن العالم الأول، وتملكت عينين ليستا كعينيَّ، ممدد على الأرض أرى نفسي وكأنني فوق نفسي.

أرواح كثيرة تحررت من أجسادها أراها تتطاير بجواري فوق البشر، كان جاد أحدها أيضًا.

اقترب جود من جسدي الملطخ بالدماء وأجهش بالبكاء، ربَّتُّ على كتفه ولكنه لم يلتفت إليَّ، "لا تبكِ يا صغيري؛ فأنا لا أتألم، قف وانظر إليَّ بأفضل حالاتي، بُنَيَّ، يا صغيري، بكاؤك يؤلمني، يمزقني، لا تريد لي أن أتمزق، أليس كذلك! ابتسمْ حبيبي؛ أنا وأخوك بخير، انظر لروح أخيك ممسكًا بيدي مبتسمًا يتطاير بسماء دمشق كطير أطلق سراحه للتوِّ، ثلجة تموز قد ذابت وانصهرت لروح تموزية تجول سماء الوطن"، لم يسمع كلامي، بل ازداد بكاؤه وهزه لجسدي، انهار على جسد فانٍ ولم يلتفت لروحي! "ليال اقتربي ابنتي، وحاولي تهدئة جود وألينا؛ فهما بأمسِّ الحاجة إليك." رأيت ألينا تغيب عن وعيها تدريجيًّا وتتساقط كحبة كرز تساقطت من شجرتها بفعل العواصف، كرزة حمراء شهية.

رفعت رأسي لأعلى وجدت دانيا تنظر إلي وتمد كفَّها تستقبلني، ابتسمت ابتسامة واسعة وأمسكت بيد جاد جيدًا وارتفعنا وترفَّعنا، من منزلة البشر إلى الشهداء ترفَّعنا، ضحى بحياته ليعوِّض حناني وليشاركني الحياة الأبدية، جاد ممسك يدي بقوة وكأنه يخبرني بأن لا شيء سيفرقنا بعد الآن.

توقَّف فجأة وهمس لي: "انتظر"، أفلت يدي ونزل إلى جود، قبَّله من جبينه واحتضن ألينا وعاد إليَّ وهو يشعُّ بالبياض والحب، وقال: "هيا."..

يا للشهادة! يا للحياة الأبدية! يا لنا من محظوظين!

2015 م

جود

وصلت عند القبر أحمل باقة ورد وباقة دمع والكثير من الخذلان لأنثرها على ذاك القبر الذي أخذ أغلى شخصين، وها هما معًا تحت التراب، لا تفصلنا إلا حفنة من التراب، ولا يفصلهما شيء.

لِمَ تركتموني وحدي! أبي! يا من أفاض عليَّ من حنانه ودلاله لسنوات طوال، كيف لك أن تذهب وتتركني وأنا بأمسِّ الحاجة إليك؟! ألا تريد أن ترى حفيدك؟! وأن تلاعبه وتحمله كما كنت تحملني؟ فهو يشبهك كثيراً؛ شعره الأسود وعيناه وكل تفاصيله تذكِّرني بك، وكأنه جاء ليعوض غيابك، ولكن هل هناك ما يعوِّض عن حنان الأب؟!

جاد! أخي، يا نصفي، يا كلِّي، يا من تقاسمت معه رحمًا منذ سنوات، يا من تقاسمت معه فرحة، يا من تقاسمت معه لحنًا، لمَ لم تقاسمني الموت؟! لمَ لم تأخذني معك؟!

أنا بحاجة إليك أخي، اشتقت إليك لدرجة لا تُحتمل، صورك وذاك اللحن وكل التفاصيل التي تركتها لا تُغنيني عنك أنت، وإن كنت أنا إحدى تلك التفاصيل التي تركتها وراء ظهرك ورحلت، زاهدًا شامخًا مكتفيًا، ولكنني لم أكتفِ منك!

فرقتنا الدنيا عشرين سنة، وها هو الموت يأخذك مني مرة ثانية وأنا لم أشبع منك، أعلنت حدادًا أبديًّا، وأغلقت البيانو وتحررت منه؛ فهو قطعة منك، ومن دونك لا شيء، أسميت ابني زين؛ فبعد ولادة ليال سألتني أمي: "ماذا ستسمي المولود؟" سرحت قليلًا وقلت لها: "لن أعطيه اسمًا لراحل، لن يبدأ من انتهاء أحد، لا أريد أن يبهت اسمَي أبي وأخي، فليكن زين." لذلك أعطيته اسمًا جديدًا وحياة جديدة، ليتك تراه، ستحبه كثيرًا، وسأحدثه عنك دومًا.

سمعتُ صوت تفجير، لعنت التفجيرات والحرب وكل شيء شارك بأخذ أبي وأخي، ووقفت، نثرت الورد والدمع، ومشيت تاركًا قطعة جديدة من قلبي هناك عند ذاك القبر.

وصلت للمنزل، رأيت أمي تجلس في الصالة تلاعب زين، وكان قد بلغ شوقي أشده، وهمست لها باستسلام: " اشتقت لجاد كثيرًا، أين أجده!"، دخلت غرفتها قليلًا ورجعت وبيدها صندوق خشبي أسود أعطتني إياه وقالت لي: "جاد هنا." كلمتان كافيتان لإحيائي وقتلي.

دخلت غرفتي، فتحت الصندوق بهدوء وترقُّب وكأنني فعلًا سأجده داخل الصندوق! وعندما رفعت الغطاء تبيَّن لي بأنه قاعدة لدفتر، أخرجته بصمت وكان وكأنه في حداد، أسود مغبر حزين قاتم، مسحت الغبار عنه بيدي وأمعنت النظر بذلك الغلاف السميك، ورفعته بعنف وكأنني أقتحم حداده وأقتحم جاد، أخي.

في الصفحة الأولى كان مكتوبًا بخط ظننته خطي باللغة الإنكليزية (رواية تموزيٌّ أنا).

فتحت الصفحة الثانية وجدت في نصفها:

"لست روسيًّا بما يكفي لأكتب بالروسية.
لست سوريًّا بما يكفي لأكتب بالعربية.
فأنا مشتت ما بين.. وبين..
لذلك سأبدأ روايتي بالإنكليزية على أمل أن أجد هـويتي في يـوم مـن الأيام وأترجمها للغتي المجهولة."

غرقت بقراءة ذاك الدفتر ساعات، كنت أبكي تارة وبحرقـة وكـأنني طفل صغير، وأبتسم تارة أخرى، غُصت بجاد أكثر بتفاصيل حياته منـذ طفولته.

كم كان يشبهني! قرأت ذلك الدفتر أربع مـرات قبـل أن أقـرر تكملـة حلم أخي، ترجمته للعربية وأمسكتُ قلمه الأسود المزخرف بكريستال بنفسجي وقد شارف حبره على الانتهاء وأكملت ما بدأ به.

بقيت خمسـة أشـهر أكتـب وأقـرأ، وبعـد انتهـائي مـن قراءتهـا للمـرة الأخيرة تأكدت فعلًا أنني وجاد واحد، ولن يشعر أحـد بـأن مـن كتـب هذه الرواية اثنان، بعدما أصبحت على يقين بأنني أحييت أخي بهـذه السطور بدلت اسمها فأصبحت: (قطعتا ثلج في تموز).

نحن نكتب لنقدس قصة ما، لنحيي شخصيات على ورق، قد تكون شخصية حقيقية رحلت، أو وهمية نحن بحاجة إليها. مؤلمة هي الكتابة جدًّا؛ تُنهك القوى وتشوِّه صاحبها، تسجنه بين سطورها وبياضها الشاسع شهورًا أو ربما سنوات، ما بين فراغ أبيض وحروف سوداء يولد أبطال ويموت آخرون، ويضع الكاتب شيئًا من دواخله فيها، شيئًا من شخصيته وكيانه، ألم الرواية شبيه بألم الولادة؛ يستنزف الكاتب قواه، يتألم حبرًا ويبكي أدبًا، وترافقه بأحلامه وبيقظته، وفي لحظة إنهاء الرواية يصرخ: هذه آخر رواية أكتبها. وسرعان ما يراها حتى ينسى الألم ويبدأ برواية جديدة...

أحمد حجازي

22/03/2015 م

"حـــلـــب"

ذات خريف شاحب

قبل ثلاثين عامًا وشهرين، في أحد منازل أميركا الجنوبية حدثتني جدتي عن حلب، عن الشهباء..

تخطينا القارات والفصول، طال شعري فجأة ورأيت الربيع يُزهر، وتوردت يدي اليمنى..

حدثتني عن تاريخها، حتى رأيت التاريخ والهوامش وكل ما لا يخطر على بال أحد، رأيته، رأيت الموت والبرزخ، رأيت النور المعتم والظلام الساطع، رأيت التناقضات، والربيع الأبيض!

كانت كلما تحدثت أكثر، ابتسمت برضا أكثر، وهرب الشيب من شعرها أكثر، تراقصت دمعة في مقلتها وهمست لي: سنعود ذات يوم! استيقظت في اليوم التالي ولم تستيقظ! أقسمت لها أن أعود! وأن أزرع ياسمينة بيدي عند نافذتها لكي تحيا.

في تاريخ هذا اليوم

2016-12-15

تركت حلب ورائي، وتركت نفسي تحت ركامها، تتراقص الروح فوق الأنقاض، لترسم الشهباء وتاريخها.

أراها ولا تراني، أبتسم وهي تدمع، وما زالت تلك الياسمينة التي غرستها من سبع سنوات شامخة، بيضاء تفوح منها رائحة حلب، رائحة جدتي...

ياسمين حلب أبيض مهما لوثته الحروب!

ها هي شوارع حلب فارغة، ومنازلها مدمَّرة، وأبناؤها مهاجرون، وتلك الحمامة البيضاء ترفرف، وتأبى أن ترحل!

أنا حلب بتاريخها وهوامشها، أنا القلعة، والياسمين، أنا الأزقة المبعثرة، والركام...

أنا جدتي المرددة دومًا: سنعود ذات يوم -الراحلة- أنا الجدران التي تحمل قصص وحكايات، أنا تاريخ هذا اليوم الذي لن يتلاشى! أنا عشاق الحرب، أنا الضحية الكبرى.

من فوق سماء حلب سأكتب: "ذات وطن سنعود إليك يا شهباء"..

15ديسمبر 2016

أحمد حجازي

"لا تسجن معرفتك وبادل كتبك."

القراءة هي الحياة؛ فنحن نقرأ لنتعرف على خبرات وحكايات الآخرين، نقرأ لنتعلم شيئًا جديدًا، لنتعرف من قرب على عوالم قد لا نعرف عنها شيئًا؛ لذا صديقي القارئ لا تسجن معرفتك وبادل كتبك مع الآخرين.

فلا تجعل هذا الكتاب يقف بين يديك وحدك؛ فمن خلاله قد تكون استمتعت، وتذوقت متعة القراءة، وقد تكون تعرَّفت على شيء جديد، فلا تبخل على مَن حولك بهذه المتعة.

موقع دار الكتب
"نحن نحترم الكتاب"

يتداخل الزمن والوقت

لأجد نفسي في عام 2026م وسط غابات الأمازون

يناديني رجلٌ عجوزٌ منحني الظهر، يتكئ على عكّازٍ قوي ي

صدر صوتًا عند كلِّ خطوة، حليق اللحية، شاربه غليظ وشعره

أبيض، ينظر لطرفٍ واحد وكأنّه أعمى!

هل حقًا كان أعمى!

همس لي -باللغة اللاتينية- "لم يعد هناك الكثير من الوقت،

اذهب إلى سوريا يا جاك"

حاولتُ أن أصحح اسمي له، ولكنّه لم ينتظر جوابًا وتلاشى!.

عانق الحياة في 17 مايو من عام 1996م، جنسيته الأولى "السورية"

من ريف دمشق حيث نسيَ مشيمته وغُلِّفَت بالياسمين.

وجنسيته الثانية "المغربية" التي اختلطت بكريّاته البيضاء.

طالب طب بشري في جامعة القاهرة

أول ولاداته الأدبية "قطعتا ثلج في تموز"

له مجموعة قصصية أيضًا بعنوان " أوركسترا حنين".

أحمد حجازي

رسم الغلاف: سيف حَمزة

تصميم إلكتروني: هُمام المُرّ